مَجْمُوعَةٌ قَصَصِيَّةٌ

وَقْتٌ جَيِّدٌ لِلتَّحْلِيقِ

بيتر ماهر الصغيران

عنوان الكتاب : وَقْتٌ جَيِّدٌ لِلتَّحْلِيقِ
المؤلف : بيتر ماهر الصغيران
المراجعة اللغوية : عبد الهادي عباس
الإخراج الداخلي : رشا عبدالله
تصميم الغلاف : عمرو الحو
رقم الإيداع : ٢٠١٧/٢٢٠٩
ردمك : 978-977-6549-23-4
الطبعة الأولى: يناير 2017

المدير العام : هاله البشبيشي
المدير التنفيذي : شريف الليثي

دار تويا للنشر والتوزيع

dartoya2015@gmail.com
دار تويا للنشر و التوزيع Dar.toya
@Dar_Toya
Dar.toya
(+2) 01150483084 - (+2) 01000706014
٣٥ شارع النصر – المعادي – القاهرة – مصر

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

مَجْمُوعَةٌ قَصَصِيَّةٌ

وَقْتٌ جَيِّدٌ لِلتَّحْلِيقِ

بيتر ماهر الصغيران

دار تويا للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى أستاذ سامي رؤوف

أول من علمني فنون الكتابة

رُوح

رُوح

مَقْتَلُ الرَّأْسِ

"سرقنا أول رأسٍ والبقية تأتي".

قالها الخفير بصوتٍ عالٍ، ونبرةٍ تحملُ معانيَ الانتصار.

القريـةُ مترقبـةٌ.. مـاذا سـيحدث لفنانهـا الأول عـلى يـد العمـدة وأعوانـه.

الفنـان "محسـن الشريـف"، اعتـاد نحـت التماثيـل ومـزجَ كلٍّ تمثـالٍ بشـخصية صاحبـه.

رأى في العمـدة أنـه حـمار يسـوقه المأمـور فنحـت جسـده عـلى شـكلِ حـمارٍ، ورأسٍ بـشريٍّ يُشـبه العمـدة. كان أبـو الهـول هـو أهـم مصـادر فكـرة محسـن مـع اختـلافِ الزمـن.

دار نمـوذجُ الحـمار الجديـد القريـة، فلـم يعـد الأمـرُ يُطـاق أبـدًا مـن سـخريةِ الأطفـال عـلى عمدتهـم؛ فكلـما رأوه رددوا:

الحمار أبوديل، الحمار أبوديل.. بل ميَّز محسن الحمار بذيلٍ أطول من المعتاد الطبيعي.

لصوصُ القرية، يخشون من ذلك اليوم الذي ينحتهم فيه، يتَّقون شرَّه خائفين من قتله الذي قد ينشرُ الفتنة، فالجميع يُحبه.

رفض الرشاوى ومحاولات لاستمالته والتي تمثلت في الخبز، وبعض قطع الجُبن وصفائح الزبد البلدي واللحم. ولم يبقَ للعمدة إلا التصرف في ذلك الرأس، قرَّر إرسال بعض خفره لسرقته ليلًا، فتسللوا وأزالوا الرأس تاركين الجسد بنفس الذيل.

وقف العمدةُ أمام أهل القرية بمعولٍ لتحطيم الرأس، يُعلن مقتله على مرأى ومسمعٍ من الجميع بمن فيهم محسن نفسه كشاهدٍ. ولكن... ما زال الجسد موجودًا.. تُرى هل سيتوقف محسن عن نحت الرؤوس؟!

السِّيرَةُ الذَّاتِيَّةُ لِحِمَارٍ

(١)

وصلَ لنتيجةٍ مفادُها أنَّ محله لم يعد يجلب زبائن، وأنَّ تغير أذواق "البني آدمين" من القديم للحديث هو السبب. أمامه حل هو التعلم من جديدٍ، تعلم أحدث القصَّات التي على الموضة، ولكن كيف يعود من صاحب محل له شنة ورنة إلى صبي يتعلم؟!

"عم حمدي"... صاحب صالون عماد حمدي الذي يقع على أول القرية. حتى من يعتمد عليهم من كبار السن نسبيًّا، تغيرت طباعُهم وصاروا يبحثون عن بعض الحداثة التي غزت القرية في الفترة الماضية، وكأنَّ القرية كلها صارت على نهج الحداثة. طالما استبعد حل التعلم وهناك حل تغيير النشاط، ولكن حتى تغيير النشاط يحتاج إلى تعلم،

ومغامـرة خوضـه في مجـالٍ جديـدٍ غـير محسـوبةٍ، فالحلاقـة بالنسـبة إليـه كل شيء، ورثهـا عـن أبيـه الـذي ورثهـا عـن أبيـه.

جـاء اقـتراحُ صاحبـه القديـم، وهـو الوحيـدُ مـن ضمـن قلائـل ظلـوا متمسـكين بالحلاقـة لديـه، هـو وأولاده القُـصَّر. إلا أن بعـض أولاده المراهقـين أرادوا تغيـير عـم حمـدي إلى القصَّـات الحديثـة. كانـت الخلافـاتُ تـدبُّ بـين الأب وأبنائـه، كان بـين ناريْـن حائـرًا بينهـم وبـين وفائـه لصديقـه.

كان "عبـد الـبر" يحلـم بكوابيـس تُصـور كميـة القهـر التـي يعيشـها صديـق عمـره "حمـدي"، يسـتيقظ مفزوعًـا يـشربُ المـاء، ويُفارقـه النـوم حتـى الصبـاح، ويمكـث ليفكـر في حـلٍّ. وفي إحـدى الليـالي جاءتـه الفكـرةُ باقـتراحٍ سـحري..

تغيـير النشـاط، ولكـن ليسـت المهنـة نفسَـها، تبقـى الصنعـة ولكـن للحمـير! صحيـحٌ أنَّ الوسـيلة سـتتحول لِمِقَـصٍّ أكـبر، ولكنـه سـيُحافظ عـلى نفـس المُسـمَّى الـذي يتفاخـر بـه "أسـطى حـلاق".

(٢)

دخل إياه وهو يهش الذباب من على كرسي الزبون، في انتظار من قرر العودة إلى أصله ويقص شعره لديه، ففي الأوِّل كان هو الأوَّل والجميع صِبْيَة لديه تعلموا على يديه.

ألقى التحية، جلس يُحاول إخراج بعض الضحكات من فمه، ولكنها تخرج صفراء ليس لها معنى، ضحكات لا تُطرب الأذن، صوتية فقط. فبدأ عبد البر حديثه عن الاقتراح الجديد:

حمدي، عندي لكَ مفاجأة تُغيِّر النشاط وتحلق للحمير!

- سامحك الله يا صديقي أتهزأ مني؟!

- لا أهزأ، ولكن اسمع الاقتراح الجديد كله للنهاية! كم عدد حلاقي الحمير في القرية، والحمير ليس لها موضة تتغير، وأنت لديك سمعتك في الحلاقة والكل يعرفك ويعرف أباك رحمة الله عليه. ستعود لسابق عهدك؛ احسب كم الحمير الموجودة, ولا يوجد حلاق من نفس البلد، ولا يحضرون في مواعيدهم ويحسبون مصاريف سفرهم.

- لكن وإن وافقت يا "عبد البر"، أين خبرتي مع الحمير وأنا لا أفهم فيها شيئًا؟! الموضوع صعب.

- آه لـو كان عنـدي حـمار! لم أكـن أبـدًا أسـتخسره فيـك. ليـس لـديَّ حمـير ولكـن نسـتطيع شراء واحـدٍ مـن سـوق البهايـم.

- لو فشلت؟

- جـرب لـن تخـسر، الحـمار ثمنـه بسـيط وتسـتطيع بيعـه إن خـاب الأمـر.

- اتفقنا يا عبد البر.

- اتفقنا.

(٣)

في سـوق البهائـم وقـف الصديقـان يبحثـان معًـا عـن الحمار المُـراد، ولكـن لا بـد أن تكـون سـيرته حسـنة لم يسـبق لـه رفـس صاحبـه مـن قبل.

وبسـؤال أحـد البائعـين عـن مـا هـو مطلـوب أشـار عليهـم بحـمار، وشرع يمـدح فيـه؛ لا يـأكل كثـيرًا، لم يشـاهده أحـدٌ يرفـس وحتـى نهيقـه عـلى اسـتحياء.

صمم "حمدي" على أن الحمار سيكون موضع تجربة لمدة أسبوع، إن لم يكن به الهدوء سيتم استبداله بآخر، وافق البائع لثقته في سيرة الحمار الحسنة.

من السوق إلى المحل ونظرات أهل القرية مذهولة، والتساؤلات.. ماذا أصاب "عم حمدي" ياتُرى؟ قلة عدد الزبائن أصابته بالجنون!

دخل الحمار ووضعه أمام المرآة، وعندما رأى الحمار نفسه بالمرآة؛ جُنَّ جنونه، بدأ في الرفس والنهيق، نَفَذَ حمدي بأعجوبة من تلك الثورة. وبعد ساعة، بدأت ثورة الحمار في الهدوء تدريجيًّا حتى بدأ يتأقلم على الوضع الجديد.

اقترب "حمدي" من الحمار بحذرٍ شديدٍ، بدا مترددًا في لمسه، وضع يده عليه بحذر، وطبطب عليه وتناقش معه"لن أوذيك".

(٤)

هدية صاحبه إليه مقص حمير. بدأ "حمدي" في التجربة وأصاب المقص الحمار، ونزف ونهق بصوتٍ عالٍ، وأحيانًا يرفس، ثم يعاود القص والتجريب من جديدٍ، استمرت التجارب حتى تمكن من حلاقة شعره دون إصابةٍ واحدةٍ، بل وبدا الحمار أكثر أناقةً وجمالًا بين حمير القرية. خرج "حمدي" به مُفاخرًا بين الجميع، فاشتعلت سخريتهم منه خاصةً بعد أن تسربت أنباء أنه سيتحول لحلاق حمير، ولكنه لم يبالِ، وجلس في محله في انتظار أول زبون.

مرَّ اليوم الأول والثاني والثالث حتى مرَّ الأسبوع الأول بالكامل، تسربت الحسرة والندم إلى روحه.. كان بنو آدم يحضرون إليه زبونًا أو اثنين في اليوم. حاليًا لا يوجد ظل زبونٍ واحدٍ، بدأ يلوم نفسه ويلعن يوم اقتراح "عبد البر"، ولكن في ظل ساعات الانتظار تلك، دخل أول زبون بحماريْن دفعةً واحدةً ومعنى ذلك سيكون الأجر مضاعفًا.

بدأ الحلاقة ليخرج من تحت يده الحمار عريسًا تقبله أي حمارة! وتحسنت نفسيته بعد أن ظل يرفض أي عملٍ ثقيلٍ، صار يقبل بحماسٍ أكبر، وشاع في البلد كله أن نفسية الحمير التي تحلق عند "حمدي" تكون أفضل.

تحـول محلـه إلى موقـف انتظـار، وبـدأ في تصميـم وابتـكار قصـات خاصـة، تخطـت شـهرته القريـة إلى القـرى المجـاورة وأصبحـوا يطلبونـه بالاسـم، حتـى جعلـه العمـدة الحـلاق الخـاص لحمـيره.

أمـا حلاقـو القريـة فدخلـت الغـيرة إلى قلوبهـم، وفكـر بعضهـم في تقليـده وتغيـير النشـاط، لتـأتي المهمـة الأصعـب في البحـث عـن حـمارٍ ذي سـيرةٍ ذاتيـةٍ حسـنة...

يَوْمِيَّاتُ المُعَلَّبُونَ

قـام (سـليمان) مـن نومـةٍ كئيبـةٍ ولا يعـرف معنـى هـذا العـدم الـذي شـبَّ في أوصالـه..

نظر إلى النتيجةِ وجد التاريخ ٢٨ سبتمبر لسنة ١٩٧٠

وبعـد الفجـر بقليـل ذهـب كالعـادة إلى الغيـط، نـداء باطـل الأباطيـل الـكل باطـل يغلـف الوجه..

بـدا شيء مـا مؤلمًـا، يؤجـج خيالـه مـع كل ضربـة فـأسٍ، يقطـع جـزءًا مـن كيانـه وينـزف..

ضرباتٌ متتاليةٌ للأرض حملت كل الغل وكل القوة..

شرع في تفريـغ كل مـا في نفسـه مـن طاقـةٍ، أراد وضعهـا تحـت رحمـة الفـأس، يـا حبـذا لـو اسـتطاع أن يُعلقهـا عـلى مقصلـةٍ.

في ساعة العصاري اليومية، لاحت ذكرى الليلة الماضية، بعدما فعل كل شيء مع امرأته كما نصحه أحدُ الأصدقاء في جلسات (الكركرة المعتادة)

ولا تخلو الشيشة من قطعةٍ من الحشيش، تصل إلى أعماق الدماغ وتسكن في تلافيفه، فعل كل شيء ولم يصل لشيء.

تدور ذكريات ليالي ماضية، كان فيها أكثر وصولًا للنشوة، فترسل الصور على شكل دوائر في كل جسده حتى تستقر في أعماقه السحيقة، يستدعيها وقت الحاجة.

يجري ريقه يفتح فاه ثم تنهيدة تخرج على هيئةِ صهدٍ من الصدر..

تأمل قوة جعلته يرى وجهه في مرآة الحمَّام، ثم بعدها بقليلٍ وقف بجسده أمام مرآة الغرفة، يثني ركبتيه ويفرد ذراعيه.

بالمساء تبدأ جلسات السهر، وعلى نفس أنغام الكركرة، الماء داخل الشيشة في رحلات صعوده وهبوطه مع احتراق الفحم.

دخل (سالم) بجلبابه الفضفاض، تبدو عليه ابتسامةٌ صفراء غير معتادةٍ، قبل عمل التعميرة في العقول.

فتساءل أهل الجلسة:

(سالم) يبتسم، أكيد وراك حاجة..

أخـرج مجلـةً مكتوبـةً بلغـةٍ أجنبيـةٍ، تسـللت أعينهـم نحوهـا تبـدو مـن الغِـلاف ماهيتهـا، تظهـر الأقـدام النسـائية عاريـة، والأصابـع يزينهـا (المناكـير الأحمـر) والشـفاه معجونـة في (روج أحمـر)..

وبعـض مـن يعـرف القـراءة منهـم، اكتشـفوا أنهـا بالإنجليزيـة، وبالتحديـد أمريكيـة كتبـت عبـارة باللـون الأحمـر فـوق شـعر إحداهـن:

WELCOME IN U.S.A

(أمـير) المجنـد الـذي يقـضي أيـام الإجـازة، تعجَّـب مـن وصـول تلـك النوعيـة مـن المجـلات إلى يـد سـالم..

فهـو الـذي يراهـا في المعسـكر عـلى هيئـة صفحـات، يجلبهـا بعـض السـكان مـن المدنيـين، وتُهـرب إلى داخـل المعسـكر، تُبـاع الصفحـة بجنيه..

فتـح (سـالم) المجلـة وانسـابت كل النسـاء التـي بهـا، بأثدائهـن وأردافهـن وملابسـهن وبغـير ملابسـهن.

ثم قال:

بعت إمبارح مجلة لدسوقي عريس بلدنا، معايا منها خمسة اللي عايز، هنعمل مزاد، مجلات بلاد بره بقى (الأمريكاني).

تساءل (أمير) ساخرًا:

مش عارفين نجيب صواريخ أمريكاني جايبين صواريخ نسوان أمريكاني؟!

ضحكوا جميعًا، ثم أكمل أحدهم:

لا تقولي طيارات (فانتوم) ولا غيره معنا الأمريكاني كله..

مرَّت المجلة والعيون تغوص وتكتم الأنفس، تتحرك الأعضاء جميعها نحو الارتفاع حتى تكاد تمزق السراويل.

اضرب!! قالها (أمير)، اضرب كمان الأمريكان يا ريس، ثم أخذ نفسًا من الشيشة وكركر..

اقتل كل النسوان الأمريكان يا واد!

في كل ذلك (سليمان) جالس في ركنٍ يتجرع الأنفاس بمفرده ولم يشارك في الغوص مثلهم.

ثم وقف فجأةً وبدأ يقترب من (سالم)، وقال هامسًا إليه:

المجلة دي تلزمني..

ـ هتدفع كام؟

ـ عايز كام؟

ـ عشره جنيه.

ـ كتير.

ـ إنت شايف الرجالة عليها إزاي، لو عملت مزاد يمكن تجيب أكتر.

ـ اتفقنا، بكرة على القهوة بعد المغرب أجيب الفلوس تجيب المجلة.

ـ اتفقنا.

بعدما انفضت الجلسة لم يترك (سالم) دون توصية بألا يخلف ميعاده.

رحل منتشيًا يزهو في طريق عودته ولأول مرة منذ سنواتٍ، ينتظر شيئًا ما.

دخل البيت وظل يرقص كطفلٍ عثر على لعبةٍ غير قابلةٍ للكسر.

وفي الموعد المحدد حصل عليها، أخفاها بين طيات الجلباب حتى وصل البيت، بدأ يُقلب وما زالت الدهشة

تنقلـه في تلـك الصـور مـع السـمراء والخمريـة والبيضـاء والزنجيـة، مـع قطـع الملابـس الخفيفـة والتـي بـدون ملابـس، مـع مختلـف الأحجـام والأشـكال بـين الدائريـة والأسـطوانية والمربعـة.

مـرَّت أيـامٌ عـلى هـذا الحـال، وكل شيء يـأتي سريعًـا ويذهب سريعًا، وتسـاءل:

أخ لـو أقـدر أغـير وش الوليـة.. الـراس بـس والجسـم هـو هـو..

لمعت الفكرة حتى اختمرت كانت عبارة عن حيلة:

عـن نـزع الصفحـات مـن المجلـة ولصقهـا بالصمـغ عـلى كيـس أسـود يُغطـي بهـا وجههـا ويربطـه بإحـكامٍ مـع عمـل بعـض فتحـات للتهويـة..

وبعد ساعاتٍ بسيطةٍ شرع في التنفيذ.

الغريـب في الأمـر أن الزوجـة وافقـت دون شرطٍ أو قيـدٍ، وهـي التـي لا حـول لهـا ولا قـوة.

في الليلـة الأولى لتنفيـذ الفكـرة، تأمـل أول صـورة، واشـتغلت الخيـالات حتـى أخـذت وضعهـا المناسـب، أشـعله الحـماس وشـنَّ الهجـوم الـذي لم يتوقـف، وهـو يـرى الجسـد يتلـوى، لا يسـمع سـوى أنَّـات تناسـب تلـك الحالـة.

وأخيرًا شعر براحة.

مع كل مرةٍ يُجامع يُغير، بين التي تبدو صفراء البشرة والهندية وأحبهن إلى قلبه التي تشبه اللبنانيات.

تتوسل المرأة أحيانًا وتدمع، يتركها تقول ما تشاء، وهو في لهفته في لصق وتجريب جميع الصور، حتى تفرغ ويشتري أخرى جديدة.

أمست فكرة سليمان تتفق مع البعض من أصدقاء الجلسة، ثم تم تداول الخبرات فيما بينهم، عن أنسب الطرق لتنفيذ تلك المتعة، أصبحت طريقةً مثاليةً يقولها الفرد منهم لأحبائه.

دخل في ليلةٍ ثم أيقظها من سبات النوم، وضع صورةً على كيسٍ وألبسها القناع، لم يفتح فتحتين ظنًّا أن كل شيء سينتهي سريعًا.

بدأت الاستغاثات في تلك المرة أقرب إلى الصراخ المكتوم، ثم ربط اليدين والقدمين، وفكَّر في طريقةٍ تصدر أصواتًا بطريقةٍ أكبر..

وقعت عيناه على عصا يسوقُ بها البهائم إلى الغيط..

أخذت بعض أفكار السادية تصعد إلى عقله وتُحرِّك أنامل أصابعه بالتنفيذ، شمل الضرب كل أجزاء الجسم

تقريبًا، حتى ظهرت بعضُ التقرحات على الجسد والاحمرار شعَّ بالعينين، مرَّت دقائق من تلوي الجسد حتى سكن تمامًا، ظنًّا منه أنه سكون الاستسلام.

ثم نزع الكيس وكانت الجثة هامدةً مفتوحة العينين والفم.

فظل يصرخ:

يخرب بيت الأمريكان... يخرب بيت الأمريكان!

ظِلُّ الرَّجُلِ الْغَائِبِ

ضربَ الترعـةَ عـدة مـراتٍ بعصـا خشـبيةٍ غليظـةٍ، وقفـتُ عـلى رصيـف المحطـة في بلدتنـا، أتابـع ضرب الترعـة، أفهـم أنَّ ضرب الترعـة بتلـك الطريقـة لغـرضٍ مـا في نفـس الصيـاد، ولكـن لم أصِـل عـن نفـسي للغـرض، في تلـك الخواطـر التـي تـراودني وقـت انتظـار القطـار، جـاءني صـوتُ شـخصٍ وجـدني مذهـولًا مـن تصرفـات الصيـاد:

السمك نائم ــ لا بد أن يصحو.

- نائم!

- لأجـل صيـدٍ أكـثر وفـرةً؛ سـيصحو السـمك وتخـرج الشـبكة بكميـةٍ أكـبر.

- حضرتك صياد؟

- لا، خبرة في بعض المسائل.

انتبهتُ أني أتكلم مع شخصٍ غريبٍ، ولا أعرف إذا كان من أهل البلد أم لا. أنا على ثقة؛ أول مرة أرى تلك القسمات الرفيعة، وهذا الوجه النحيل، وذلك الرأس الأصلع البيضاوي، وتلك القامة التي هي أطول مني بثلاثين سم تقريبًا أو أكثر. جاءني سؤالٌ آخر منه:

القطار المتجه لأسيوط متى يصل؟

- القطار في التاسعة كموعدٍ محددٍ، ولا أعلم هل سيأتي في موعده أم يتأخر.

- الساعة حاليًا كام؟

- الساعة التاسعة إلا عشر دقائق.

- آه... اقترَب.

ما زال واقفًا بالقرب مني، مرَّت علينا سيدةٌ تشحذ، أخرجتُ ما فيه النصيب إليها، وجدتُه يمنع يدي. ظلَّ ينهر فيها وأنا مأخوذٌ في ذهول! تلجَّم لساني عن النطق، ردَّ هو على أسئلة عيني: لماذا فعلتَ هكذا؟

- يا أستاذ أكيد تكذب، حرام عليك تساعد من ليس في حاجةٍ لمساعدة.

- مَن قال لكَ إنها ليست في حاجةٍ إلى مساعدة؟

- أثق من ذلك، ولعلمك أن تبحث لها عن عملٍ أفضل من التسول، أن تقف تبيع في محل، أو حتى تكنس الشارع، يكفي نظرات الناس إليها.

- قد تكون عاجزة عن العمل.

- معاك يا بيه "صلاح" عشرين سنة رايح من بحري إلى الصعيد والعكس، أعرفهم جميعًا، من كام يوم شحاذ لديه ولدان يعملان طبيبين، لا يمكن أن تتخيل، عرضا عليه كل وسائل المساعدة والراحة، لكنه رفض الراحة، كان رده: "أن الشِّحاذة أنفقت عليكما حتى أصبحتما طبيبين".. هل تعلم أنهما لم يستطيعا الزواج بسبب سمعة والدهما، وهناك حالات كثيرة بهذا الشكل.

- أطباء! بكل تأكيدٍ أدمن العادة فصارت داءً في دمائه.

- يا أستاذ مدُّ اليد شيء فظيعٌ، لا كرامة ولا حتى إنسانية، في وزارة في دولةٍ مسؤولة عنهم!

- فعلاً معاك حق.

- كل يوم يخترعوا حكاية؛ من تشحذ بورقةٍ، ومن تتلو عليك آياتٍ، الواحد تعب، اعملوا أي شيء أفضل من مدِّ اليد.

ظـل يثرثـر في نفـس الموضـوع ويعتـذر عـن الإطالـة، ثـم يثرثـر ويعتـذر. ولظـروفٍ مـا تأخـر القطـار، ومـن كـثرة حديثـه عنهـم، جـاءني إحسـاسٌ أنـه مخـبرٌ سري يُلقـي القبـض عـلى المتسـولين! هيئتـه، طـول قامتـه، كلامـه الواثـق مـن نفسـه، معلوماتـه. وكان قـراري الصمـت أو التعليـق بكلـماتٍ قليلـةٍ عـما يقـول.

- أنـا مثـلًا كنـتُ أعمـل لـدى مقـاولٍ كبـيرٍ وقـام بإجـراء عمليـة زرع كبـدٍ تكلفـت ربـع مليـون جنيـه.

ارتـاح قلبـي قليـلًا فقـد قـال إنـه لا يعمـل مـع الشرطـة، ولكـن قـد تكـون حركـة تمويـهٍ مباحثيـةً.

- ظللـتُ معـه عـشر سـنوات حتـى مـات، وأبحـثُ عـن عمـل. ابنتـي محجـوزةٌ بالمستشـفى منـذ الأمـس وأنـا ذاهـب إليهـا للمنيـا ومعـي أربعـة جنيهـات فقـط حتـى الفطـار لم أتناولـه، هـل طلبـتُ مسـاعدةً مـن أحـد.

- قطـارك يتجـه نحـو البحـري! فـما الـذي يجعلـك تقـف معـي هنـا عـلى خـط قبـلي؟

- أقف معك لأتدفأ بالشمس، هل أزعجتك بكلامي؟

- لا، لا يوجد إزعاج.

أخرجَ من جيب بنطاله ورقةً قديمةً نسبيًّا، ويظهر أنها صورة من أصل، قال إنها صورة رسم قلب.

- بالأمسِ تبرَّع لنا أحدُ الخيرين أمثالك، بشراء بعض مستلزمات العلاج، أنا لا أمدُّ يدي أبدًا، حتى كوب الشاي لا أشرب، أنا ابن ناس!

- ربنا معاك يا عم "صلاح" ويشفي ابنتك.

ثم ظل يُثرثر من جديدٍ في أحاديث عن أهل الخير حتى وصل لدول الخليج، فحكى أن المطرب "محمد عبده"، أعطى أثناء موسم الحج عشرين ألف ريال لأحدهم، ثم طلب مني أن أحسب كم يُساوي هذا بالمصري، ثم حكى عن طموحاتٍ كانت سابقةً للسفر إلى الخارج، واستكمل حديثه عن خير أهل الطرب.

- زمان كنتُ أحبُ "أم كلثوم"، الشهر القادم ذكرى وفاتها، وبعدها بشهرٍ ذكرى وفاة "عبد الحليم حافظ"، وقبل الست بسنة تُوفي "فريد الأطرش".

أسمع أنا كل تلك التواريخ وأصير مذهولًا من حفظها.

تركني لدقائق ليسأل عن تأخر القطار، رحل عني إلى رصيف البحري المليء بالشمس أكثر من القبلي بمراحل.

ومـن عـلى الرصيـف الآخـر قـال: "قطـارك قـادم بعـد خمـس دقائـق" وجلـس عـلى مقعـدٍ هنـاك تحـت الشـمس.

جـاءني شـخصٌ يسـأل لمـاذا تأخـر القطـارُ، وإنـه لا يوجـد شيء مضبـوط، وبعـد الحديـث أعـاود النظـر إلى المقعـد الـذي جلـس عليـه عـم صـلاح.. فـلا أجـد لـه أي أثـرٍ أو ظـل! اختفـى تمامًـا.. تبخـر قبـل أن يـأتي قطـارُ بحـري حيـث ابنتـه المحجـوزة في المستشـفى، ثـم قلـت لنفـسي:

أربعة جنيهات فقط.. لا تكفي أبدًا!

تَخَارِيفُ مَا بَعْدَ السُّطْلِ

كانـت الجثـةُ ملقـاةً هنـاك! اكتشـفها "عـوض الجزار" عنـد مدخـل القريـة، سـمع أصـواتَ البـوم تُحلـق وتحـومُ حـول الشـجرة المجـاورة لهـا، عـوى ذئـبٌ ولاح يقـتربُ مـن بعيـدٍ شـيئًا فشـيئًا، فأخـرج بعـضَ أعـواد الكبريـت وأشـعل بعـض الحطـب.

ضـاع بعـضُ السـطل مـن دماغـه بعدمـا أنهـى الحشـيش الـذي بحوزتـه حتـى آخـر نفَـس..

اقـترب مـن الوجـهِ أكـثر ليتحقـقَ منهـا؛ ربمـا تكـون إحـدى بنـات أو نسـاء القريـة ولكنـه لم يعرفهـا عـلى الإطـلاق.

الحـل الوحيـد الآن تبليـغُ ولي الأمـر بالموضـوع، فهـو الجهـةُ الوحيـدةُ الرسـميةُ. اسـتطاع أن يفكـر في ذلـك رغـم عقلـه المشـوش، وانطلـق نحـو بيـت العمـدة.

مـرَّت دقائـقُ حتـى ظهـر عـلى مـسرح الأحـداث "سـعد الطبـال"، كان عائـدًا مـن إحيـاء فـرح ابنـة أحـد أعيـان القريـة المجـاورة، ليجـدَ هـذا المنظـر في انتظـاره! اقـترب فلـم يعرفهـا، تفرَّسـت عينـاه بنهـمٍ في كل هـذا الذهـب، لمـع عـلى الصـدر والأيـدي متموجًـا وسـط اللـون الأحمـر مخترقًـا ثقبـين صغيريـن في شـحمتيْ الأذن. زغلـل الأصفـرُ عينيْـه، تلفَّـت يمينًـا ويسـارًا، لا مـن أحـد هنـا أو هنـاك، جرَّدهـا منـه ثـم ركـض بـكل قـوةٍ مبتعـدًا عـن الجثـة.

آثـار الذبـحِ عـلى الرقبـة؛ تـدلُّ عـلى ذبحهـا ببـطءٍ وكأنـه انتقـامٌ منهـا، الدمـاء أغرقـت المنطقـة العلويـة مـن ملابسـها، أمـا بقيـةُ الثـوب فلـم تصـل إليـه الدمـاءُ، كان مرصعًـا بالترتـر.

مـرَّت "زينـات" بائعـةُ القـماش التـي تجـولُ بالقـرى، وفي العـادة تعـودُ في أوقـاتٍ متأخـرةٍ بالليـل، لمحـت مـن بعيـدٍ شـيئًا يلمـع ليـلًا، ومثـل هـذا اللمعـان في القريـة في تلك السـاعة المتأخـرة سـمعوا عنـه مـن حكايـات الآبـاء والأجـداد؛ إيـاك أن تقـتربَ مـن شيءٍ يلمـعُ ليـلًا فهـو لمعـانٌ زائـفٌ، وقـد يكـون خلفـه روح شريـرة تلبـس مـن يذهـب إليـه! رغـم كل الروايـات المرعبـة التـي سـمعتها زينـات، اقتربـت مـن الـشيء اللامـع بحـذر؛ فوجـدت جثـةً ممـددةً عـلى الأرض! صرخـت صرخـةً

مدويـةً، لـولا أنهـا بمدخـل القريـة والوقـت متأخـرٌ نسـبيًّا، لسـمع أهـل القريـة بهـا.

ثـم اقتربـت وجسَّـتها، وجدتهـا ميتـةً فبهـر عينيْهـا هـذا الثـوب المطـرز، وبـدأت عمليـة التجريـد.. تركتهـا بالملابـسِ الداخليـةِ فقـط، ولاذت مسرعـةً بالفـرار.

أبلـغ "عـوض الجـزار" العمـدة فذهـب العمـدةُ بنفسـهِ ومعـه بعـضٌ مـن الخفـر، وجدوهـا شـبه عاريـةٍ فسـأل عـوض:

- عريانة! لما بلغت عنها كانت عريانة؟!

- لا، لابسة ومستورة، يا ترى إيه حصل؟!

- الحل الوحيد نلمَّها بملاءة سريرٍ نسترها ونبلغ المركز.

وهنـا تدخـل شـيخ الخفـر بالنصحيـة للعمـدة، أخـذ العمدة عـلى أحـد الجوانب:

يا جناب العمدة لديَّ اقتراحٌ ألا نبلغ المركز بالقتيلة!

- لماذا؟

- إنهـا مومـس، ويبـدو تخلـص منهـا عشـيقها وهـرب، وتركها عـلى الطريـق مـا بـين القريـة والبنـدر، وصعـب أن يجـدوا الجـاني. جنابـك يمكـن يكـون مـن خـارج المديريـة كلهـا وألقـى بهـا هنـا فتكـثر الأقاويـل، مـن أتى بهـا هنـا؟ سـمعة جنابـك!

ربما يقول الناس من قتلها من داخل القرية ويبدأ الخوف بين الناس.. ولا نريد أي شبهة لتلويث سمعة جنابك.

- ماذا تقترح؟

- نكفي على الخبر ماجور! ومن يسأل عن مومس؟ موتها أفضل من حياتها! نحن سنقوم بالواجب، إكرام الميت دفنه، تدفن حتى في مقابر جنابك.

- إنتَ اتجننت! أدفن عاهرة في مقابر علية البشوات والبهوات! جنب أبويا وأمي! أطلع بيها على الجبل واحفروا حفرة وارموها يمكن ياكلها ديب جعان.

- تمام جنابك، ولو وصل الموضوع للناس نقول المركز اتصرف وقبض على القاتل.

مضى الجميعُ ولما سأل عوض شيخ الخفر قال إليه:

المركز اتصرف بمعرفته..

في ليلةٍ من ليالي الأنس حكى "عوض" الحكاية لأصدقاء الجوزة، البعض صدقه والبعض قال حتى لو.. ما شأننا بها تحيا، تموت؟

صعد الدخانُ وانتهت قطعةُ الحشيش، مرَّ عوض على نفس المكان، تذكر وتأمل، رحل ولم يعد يمرُّ من هناك مهما زادت المسافة والمدة.....

صُنِعَ مِنَ الرِّيحِ

إنــه الموســم يــا لعينــة! موســمُ الفرحــةِ المجانيــة، أنــا أكرهـك... أحتقـرك!! هكـذا كان يُـردد تلـك العبـارة في كل عـامٍ وفي نفــس هــذا التوقيــت.

صنعــتِ الريــحُ منــه رجـلًا يحتمـلُ الضيـق، رجـلًا يعـرف وقــت المنــع ووقــت المنــح، صنعــت فيــه أشــياء فيقبــل منهــا تعســفَ الطبيعــةِ حيــث طــيران أوراقِ الشــجر فتتبعــثر كومًــا هنــا وكومًــا هنــاك.

يقبــل صداقــةَ الريــح حينــما يُلقــي بــالأوراقِ في جانــبٍ واحــدٍ.

يعشــقُ الريــحَ عندمــا تُحــرك الســحبَ فتختفــي الشــمسُ صيفًــا، بينــما يســتعدي الريــح ويكرههــا، عندمــا تُعانــده فتحــرك

السحب، فتهطل الأمطارُ على الأرض وتتسخ فيزداد عناء الإزالة.

تلف نفس الريح وتدور في الربيع، مع حلاوة النبات الأخضر المشدود على الأغصان، تنتفض الزهورُ وتُعلن عن نفسِها بالألوان، ولكن في ظل تلك المعاهدة مع الريح يكتشفُ أنها وقتيةٌ؛ تأتي رياحُ الخماسين وهي الشر الذي طالما نفر منه سواء حول أو خارج سور الحديقة التي عمل بها كناسًا، وهو يتلصصُ بالرؤيةِ على العُشاق حيث الأيادي التي تمتد في جميع المناطق، تشرحُ معانيَ يعجزُ اللسانُ عن قولها. كانوا يكشفون عن ابتساماتٍ ربيعيةٍ سعيدةٍ، ظلت أيامًا ممتعةً في أوقات العمل، ولكن فجأة تتحرك الريحُ وتتشابك السحب وتزدادُ سرعة العدْو.

فحضورُ الخماسين بكل غبائها يُنفر العشاق، فيهربون ويركضون وكان سؤاله ماذا يفعل؟

في صباح اليوم التالي، وبعد مرور أعوامٍ احتمل فيها عناء الريح؛ قدَّم استقالته ليتركَ الساحة لها مشفقًا على من يأتي بعده راجيًا ألا يكون حظه مثله، تصنع الريح سعادته وتصنع أحزانه أيضًا..

تَاجِرُ الصَّحَرَاءِ

وقـف تاجـرُ الصحـراءِ إلى جـوارهِ جملُـهُ يجـترُّ، قـد أنهكـه طـولُ الرحلـة، كـم كانـت في تلـك المـرة صعبـةً شـاقةً! لكنـه اعتادعـلى ذلـك؛ نظـر التاجرُعـلى امتـداد بـصره في أرضِ اليـوم.. وفي كل مـرةٍ يبتعـد ولا يعـرف إلى أيـن سـتأخذه التجـارةُ؟!

وضـع عـلى رقبـةِ الجَمـل صـورةً مرسـومةً، كتـب أعلاهـا الصحـراء، صوَّرتهـا امـرأة ذات شَـعرٍ طويـلٍ أسـود وأصفـر، عينـيْن كحيلتـيْن، رقبـة طويلـة تنتهـي بتفرعـاتٍ ناحيـة الكتفـيْنِ والصـدر.

حمـل فيـما يحملُ بعضًـا مـن أكيـاس الرمـل مـن تربـةِ كل جهـةٍ مـن الجهـات التـي زارهـا، إلا أن الشـمال تختلـط فيـه الرمـالُ مـع اللـون الأبيـض.

أنفه الأفطس أعطى مساحةً للهواء أن يتوغل في جسمه، يمتلئ بالأكسجين بكل أطرافه وشراييـنه.

وقتُ العواصف الرملية، لونه الأسود يصيرُ أكثر دكانةً.

عباءته البيضاء، تمنعُ نوم الشمس على جسده بالصباح، فيبدو للناظر إليه كُرةً سوداء ملفوفة في شالٍ أبيض، لا يظهر منه غير يد سمراء، تقود جملًا حتى يدنو من أرض اليوم.

علَّم التاجرُ مُساعديه بعض أناشيد الصحراء:

قد تركنا الوادي الخصيبْ

تركنا كل حبيبٍ وقريبْ

أعطي من كنوزك كلَّ عجيبْ

أبغض كل أعدائك، أنا الحبيبْ

يحفظ التاجر مثل تلك الأناشيد، يكتبها على صحافٍ من ورقِ النخيل، حتى تكونَ متداولةً بين الأجيال.

ينظرون للسماء بالمساء، يناجون النار المشتعلة، وسط حكاوي السَّمر، يتناقشون أي من الجهات مربحة بعد الشمال؟

يبدأ الإعلانُ بين المستأجرين وتداول أخبار ومميزات كل أرضٍ وكل وقت.

(٢)

جاء المستأجرون كل مستأجرٍ حسب طلبه، فهناك المستأجرون الصباحيون وهناك المستأجرون المسائيون، الذين لا يجمع بينهم شيء سوى الأرض نفسِها.

الصباحيون، الشمس لديهم المحور الأساسي وساعات الظل هي ساعات الراحة.

وهناك عاملٌ آخر لا يقل عن الشمس أهميةً وهو النخلُ؛ تستظل به الجباهُ المغموسةُ في الشمس طيلة النهار، وحتى ينتصف النهار يكون هناك نشاطٌ وجهدٌ متواصلٌ، قبل الغروب بقليلٍ، يُعيدون كل شيء نُصِبَ بالأرض ويتم إخلاؤها للمسائيين.

اتفقوا على كل شيءٍ مع التاجر، وتم تحديدُ عدد ساعات العمل، اثنتي عشرة ساعة، من الساعة السادسة وحتى الخامسة مساءً.

يقسمون المهام بينهم، هم كما يعرفهم التاجر أهل كهوف وخيمٍ، يزرعون البانجو وفي نفس المكان يأتي إليهم التجار من كل حدبٍ وصوبٍ ، يختبر التاجر النبات وأول عويل دخان خارج منه.

يستنشقه فيُجيز الصنف أو لا.

يركبـون الجِـمالَ مـن كهـفٍ إلى كهـفٍ، وكل أرضٍ يحطُّـون بهـا تبـدأ عمليـات اسـتصلاح واسـعة، يُشـارك في تلـك العمليـة الجميـع حتـى رئيسـهم "فجـر" يشـارك، ينـزع عـن نفسـه رداء الرئاسـة ويُنقـب عـن المـاء أيضًـا.

"فجـر"... نـبراسٌ يرجعـون إليـه في كل كبـيرةٍ وصغـيرةٍ، هـو رجـلٌ متـزوجٌ ولديـه أربعـة أبنـاء، "صبـاح" ابنتـه الكـبرى وهـي اسـمٌ عـلى مُسـمى؛ تُسـاعد الوالـد في إدارة شـئون الصباحيـين.

وعند الخامسة يرجعون جميعًا إلى كهوفهم.

المسـائيون أهـل المحبـة والغـرام، وتبـادل القبـل والمشـاعر والأحضـان الدافئـة، يتخفـون في زي الليـل، يقيسـون خطـوات الليـل بدقـةٍ شـديدةٍ؛ تبـدأ أوقاتُهـم مـن الخامسـة مسـاءً وحتى السادسـة صباحًـا. وجـدوا ضالتهـم المنشـودة في تلـك الأرض؛ كان لمعـانُ النجـوم وتشـكيلاتها لـه اهتـمامٌ خـاص لديهـم، بـل إنهـم ينظمـون الشـهرعلى الأسـاس القمـري، وأهـم أيـام الشـهر بالطبـع تلـك التـي يكـون فيهـا القمـرُ بـدرًا.

أسـلحتهم فتاكـةٌ مـن أجسـادٍ نسـائيةٍ تـأتي في سـياراتٍ فارهـةٍ، فتفتـح طريقًـا للأحضـان، للمسـائيين الولايـةُ عـلى هـؤلاء والحمايـة.

ينصرف المسائيون الذين اتخذوا من النجوم مرشدًا لهم.

بعدمـا أنهـى التاجـركل شيء؛ اسـتعد للسـفر إلى أرضٍ جديـدةٍ، يُسـافر في الليـل والنهـار في جميـع الأوقـات، في العواصـف الرمليـة، في الأمطـار، يعـرفُ كل شيء عـن كل شيء، ويتعامـل كمالـك الأرض الوحيـد.

لديـه رجالـه في كل مـكانٍ بالصحـراء، يُنفـذون أوامـره ويضعـون مسـتأجري الأرض الجـدد تحـت الملاحظـة.

تحـرَّك مـع جَملـه واختـار في تلـك المـرة الجنـوب، لعلهـا تكـون أكـثر ربحًـا مـما سـبقها مـن جهـاتٍ.....

حِكَايَاتُ السَّائِرَةِ

كائنـةً خلـف الأشـجار القابعـةِ بداخلهـا، وجودُهـا سـنتيمتراتٌ لا تتعـدى مـترًا واحـدًا، وجـودٌ معنـوي أكـثر منـه وجـودًا جسـديًّا، وجـودُ ذوات الأربـع تقاتـل للغـذاء.

القطـة بالأمـس وضعـت قططهـا الخمـس الصغـار، كانـت ولادةً شـبه متعـثرةٍ بصـوتٍ عـالٍ دلَّ عـلى الجـوع والـبرد، ذلـك الصـوتُ يُفصِـح عـن رُوحٍ حيـةٍ أتـت إلى الدنيـا نختلـفُ مـع كونهـا ذات قيمـةٍ أو لا، ولكـن كُتـب لهـا الوجـود. أخـذَتْ القطـط وجلسَـتْ إلى جوارهـا.

أمـا هـي.. امـرأةٌ ذات مهمـةٍ واحـدةٍ لهـا في الحيـاة؛ الاعتنـاء بأبنـاء صديقتهـا الوحيدة...القطة.

بعـد أن اطمأنـتْ لهـا تركـتْ قططهـا وأخـذت تسـعى، تُحـضر الطعـام، بقايـا أكل في أي خرابـةٍ أو مقلـب قمامـةٍ، وبعضًـا مـن المـاء المتوافـر بعـد غسـل الشـوارع.

كانـت المـرأةُ في أثنـاء جلوسـها تحسـد الأشـجار، وتمنـت أن تُخلَـقَ شـجرةً، ولكـن حتـى تلـك الشـجرة لم يـدُم وجودهـا وتـم اقتلاعهـا، لأنهـم أرادوا ذلـك.

لم تملـك مـا تُدافـع بـه عـن نفسـها إلا الجـذور، التـي تشـبثت بـالأرض بـكلِّ مـا تملـكُ مـن قـوةٍ، ولكـن في النهايـة فقـدت المقاومـة واقتُلِعَـت.

ليـالي تمـرُّ عـلى المـرأة، والمـارَّة يتذكرونهـا، ومـع ذلـك أحيانًـا كثـيرةً لا تراهـا عيونهـم!

ظلـت أكـثر المشـاهد التـي تؤثـر فيهـا، وداع قطـة أو كلـب أو موتهـما، فكلـما تعبـت في تربيـة قطـةٍ بالتحديـد، فارقتهـا بعـد فـترةٍ مـن الزمـن إلى الحيـاة والتـزاوج والتناسـل .

تمنـت أن تسـتمر كلُّ القطـط حولهـا ولكـن هيهـات! فالـرزق قليـلٌ، والمـكان ضـاق بهـم، والمـواءُ يـزدادُ وقـد ينقلـبُ إلى حـدِّ الـصراخ.

الشـتاءُ صديـقٌ ثقيـلُ الظـل، ترافقـه وهـي تنتفـض منـه.. تُحـاول أن تتـوارى خلـف الأقمشـة المهلهلـة، بينـما الصيـفُ لم يكـن بهـذا السـوء إلا صباحًـا، وخصوصًـا يوليـو وأغسـطس.

اليـوم... قـرَّرت الرحيـل إلى مـكانٍ جديـدٍ، لم تختـبر رزقـه بعـد، وقبـل نومهـا وقفـت سـيارة سـوداء، خـرج منهـا أربعـة كائنـات بصفـةٍ بشريـةٍ، بِبـدَلٍ سـوداء ونظـارات سـوداء، أجسـاد متضخمـة ومفتولـة العضـلات.

في وقـتٍ انعدمـت فيـه حركـةُ المـارة إلى جـوار الكوبـري الملاصـق للأشـجار الكائنـة هـي خلفهـا، تراهـم بوضـوحٍ رغـم كل الضبـاب.

خرجـت مـن السـيارة سـيدةٌ تـصرخُ بقـوةٍ، وضعـوا أيديهـم عـلى فمهـا، وأوثقـوا يديهـا، ألقـوا بهـا مـن فـوق الكوبـري. لاحـظ أحدهـم أنَّ شـخصًا مـا يراقبهـم خلـف الأشـجار؛ أقبـل إليهـا وحاولـت الركـض ولكـن لم تفلـح.

حاصرهـا الرجـال الأربعـة، ألقـوا بهـا مـن فـوق الكوبـري إلى جـوار المـرأة الأولى التـي مـا زالـت تقـاوم حتـى الآن. أمـا هـي فغطسـت إلى الأسـفل، كانـت الدوامـة النيليـة تجذبهـا بقـوةٍ، صعـدت إلى سـطح المـاء وضربـت بقدميهـا، حاولـت المـرأة الأخـرى التشـبث بهـا، ولكـن المـوت صـار محققًـا لهـما.

لمحهما مراكبي، لمح جسديْن يغطسان ويصعدان على وجه الماء، اتجه إليهما بقاربه الصغير، المرأة الأولى قطعت النفس تمامًا بينما هي ما زالت حيةً.

تأمل المراكبي وجه المرأة الأولى؛ وجدها النجمة المشهورة صاحبة الرصيد الفني الكبير، أخرجهما من القارب، ثم توجه بالنجمة إلى الشاطئ، اصطفَّ بعضُ المارة حولها وعرفوها، أخذوها إلى أقرب مستشفى لإجراء الإسعافات اللازمة.

بينما هي لا تزال ترتجف.. ولا يسأل عنها أحدٌ.

فُتحت للنجمة أفضل غرف الإنعاش، لكنّ العمر واحدٌ والرب واحد.

تحفظت الشرطةُ على شاهدة العيان الوحيدة للواقعة، قشعريرة قاتلة لا تزال تسري في جسدها المنهك، ولم ترد بشيء، اقتادوها لإكمال المحضر، وما زالت بقايا ملابسها المهلهلة مبتلة.

كتبت الصحفُ خبر موت النجمة، ذُكر في تفاصيل الخبر: مجهولون ألقوا بالنجمة من فوق الكوبري مع امرأةٍ مجهولةٍ.. فماتت النجمةُ وعاشت المجهولة.

حَلَوِيَّاتُ زَمَانٍ

في صباح أول يومٍ بعد تشييع جثمان الفقيد "عم رجب" السائق وشيخ السائقين بالموقف.. ككتلة واحدة وقف الميكروباص كقطعٍ من الحديد والألمونيوم المصقول أمام فؤاد رجب.

"عم رجب" أربعون عامًا ذهابًا وإيابًا على الطريق.. لو كان الطريق رجلاً لذكره بكل الخير فكم كان يُراعي آداب الطريق.

كان من ضمن قلائل بالموقفِ يستمعون "لأم كلثوم" في الصباح وهي تشدو بالراديو: (يا صباح الخير يا اللي معانا) رددها معها حتى إنه حفظ المقطع الأول بالكامل، وبقية الأغنية يدندن باللحن ثم يغني القرار برفقتها.

حـوَّل علبـة حلـوى قديمـة بعـد التغليـف بالقطيفـة إلى مجمـع شرائـط "أم كلثـوم" و"عبـد الوهـاب" و"عبـد الحليـم" و"فريـد الأطـرش". كتـب عـلى العلبـة "حلويـات زمـان" يسـأله بعـضُ الراكبـين معـه عـن معنـى كلمـةِ حلويـات زمـان، فـيرد ببهجـةٍ:

غُنا زمان وطعم حلاوة كلماته!

وكـما كان يُدلـل أذنـه بالسـمع، دلـل ميكروباصـه أيضًـا مـن الداخـل والخـارج. كاتبًـا عبـاراتٍ، عـلى حسـب حالتـه المزاجيـة، فـإذا قـضى في ليلـة خميـس سـعيدة يكتـب:

"يـا نـاس يـا شر كفايـة قـر" وإذا كانـت ليلـة غـير موفقـة أو ليسـت عـلى مسـتوى ليـالي سـابقة يكتـب كلمتـين: "يـا مسـهل يـا رب" ولا يغيرهـا إلا إذا عـاد لمسـتواه الطبيعـي.

بينـما في حالـة قلـة الـرزق يكتـب: "يـا كريـم يـا رب".. في حالـة وفـرة الـرزق يكتـب "الحمـد للـه".

حـزن المَوقـف كلـه عـلى رحيـل شـيخه الـذي كان شـيخه بمعنـى الكلمـة؛ لا يـرد مـن جـاء بطلـب، ويحـل مشـاكلهم، ولا يبخـل عـلى أُسر مـن قضـوا نحبهـم في حـوادث.

استلم فؤاد ولده اليوم كل شيء، وقام بعملية إحلال وتجديد في كل شيء؛ أول شيء فعله نزع آخر ما كتب الوالد: "استر يا ستار".

وبدأ في كتابة كلمات أغنيةٍ مشهورةٍ مؤلفةٍ خصيصًا للسائقين. ومن الداخل، أهدى علبة الحلويات لمن تولى المشيخة بعد الوالد، ونزع الكاسيت وأحل بدلاً منهC.D

في صباح أول رحلةٍ بالميكروباص، ركب إلى جواره أحد معارف والده من هو تقريبًا في مثل سنه، ترحم على "عم رجب" ونظر إلى مكان العلبة البلاستيك وسأل:

أين الحلويات؟

- ذهبت لصاحب النصيب يا عم الحاج.. موجود C.D.

سكت الرجل ولم يفتح فاه، لكنه تأفف طول الطريق، ونزل قبل أن يصل لمقصده المراد.

في صباح اليوم التالي كان ميكروباص "فؤاد" خاليًا، أشار قائلًا للرجل:

الميكروباص خالٍ.

- لا شكرًا، أنتظرُ التالي!

ومن يومها لم يركب مع "فؤاد" من جديدٍ.

المَناجِمُ الذَّهَبِيَّةُ

سوقُ اليوم، ذهب إليه وهو على يقينٍ أن يوم الخميس هو أجمل أيام الأسبوع، وأنَّ بعضًا من تلك الأمنيات المؤجلة تتحقق يوم الخميس.

يا له من يومٍ ينتهي النهاية الحسنة!

أما بقيةُ الأيام، فتختلفُ فيما بينها عن بعضِها البعض حسب السوق أو حسب اللمة الموجودة فيه.

هو ليس شخصًا بمفرده، بل هم جماعة. مجموعاتٌ ليست كثيرةً ولكنها ليست قليلةً.

أصدقاؤه المقربون إليه فيهم خمسة يُوزعون أنفسهم على الأسواق والتجمعات النسائية، التي أكثرها في أسواقِ الخضر والفاكهة.

البدايـةُ كانـت مجـرد فكـرةٍ في الـرأس، لاقـت استحسـان البعـض، وبـدأوا في التجريـب. تـم تحديـد الخطـوات المتبعـة في ذلـك وكيـف تتـم دون أن تلاحـظ أي سـيدةٍ أو فتـاةٍ.

وقـف يُحـدد لهـم ويُلقـي عليهـم أول محـاضرةٍ كـما سـمَّاها هـو بذلـك:

أول شيء، لا بـد أن يعـرفَ الجميـعُ أن فكـرة المواصـلات العامـة فكـرةٌ غـير مجديـةٍ بالمـرةِ لعـددٍ مـن الأسـباب؛ ضيـق المـكان وامـرأة واحـدة لا تكفـي، تخيلـوا هـذا اللمـس كلـه بالمجـان، أن مجـرد اللمـس يتدفـق هـذا الحنـان الأنثـوي الـذي نسـتجديه منهـن، تخيلـوا الاحتـكاك!

رفع أحدهم يده بالسؤال:

إذا تعرضـت لموقـف أثنـاء المواصـلات العامـة لا يجـوز اللمـس؟

قـال: يجـوز ولكـن الأفضـل عنـد الجلـوس إلى جوارهـا، وتُحـاول أن تلصـق فخـذك بفخذهـا، وفي تلـك الحالـة علينـا أن نختـار في طريـق خـط سـير المواصـلات مدرسـة بنـات بالصبـاح، أو مـا بعـد الظهـر أثنـاء خروجهـن أو مـا شـابه ذلـك، وكلـه يحتـاج إلى بحـث ودراسـة عميقـة قبـل التنفيـذ، وإذا حدثـت

مشـاكل بـرِّر موقفـك دائمًـا بأنهـا هـي التـي دفعتـك لذلـك لسـوء سـلوكها وإشـاراتها البذيئـة.

بـدأ أحدُهـم يبتلـع ريقَـه الجـاف ويتذكـر ذكـرى جلوسِـه إلى جـوار إحداهـن:

بالأمـس كنـتُ جالسًـا، دخلـت فتـاة الـكل تمنـى أن تجلـس إلى جـواره، ولكنهـا جلسـت إلى جـوار مـن لا يقـدر، والـكل بـدأ يلـوم القـدر، إنـه الحـظ العنيـد التعـس!

رجعت الكلمة إلى كبيرهم:

لا تيأسـوا يـا شـباب، مـن لم يجلـس اليـوم سـيجلس غـدًا، الصـبر ثـم الصـبر..

هنـا يـأتي السـؤال، كيـف تتـم الإجـراءات ودون ملاحظـة أحـدٍ؟ عـدم شـك أحـد فيـك.

تعلمـوا كلـمات الاعتـذار، إذا شـعرت بكـم إحداهـن، انتبهوا أن تكـون أياديكـم غـير متحركـةٍ، ونركـز عـلى المنطقـةِ الخلفيـةِ، وهـذا إمعانًـا في إظهـار عـدم القصـد.

الاختيـار بقـدرِ الإمـكان ومـع الخـبرة، سـوف تشـعرون مـن تسـتحق ومـن لا تسـتحق.

تنزلـقُ أيديكـم في سرعـةٍ ومرونـةٍ، خصوصًـا كلـما زادت نعومـة ملابسـهن.

أماكن تواجدنا..

أخـرج إليهـم خريطـةً بأماكـن التواجـد والازدحـام التـي يكـثرُ بهـا النسـاء، حتـى إنـه وضـع مخابـز العيـش البلـدي عـلى الخريطـة، وقـال ليسـت محببـةً إليـه لضيـق حيـز الهـرب. ثـم أكمـل حديثـه: كل عـدة أيـام سـأحاول المجـيء إليكـم بمنجـمٍ جديـدٍ؛ الأماكـن كثـيرة، تحتـاج فقـط البحـث.

(٢)

اتفقـت الأهـداف والمـوتُ واحـدُ، لحظـة هبـوط البجعـة وفنـاء البحـيرة وانحنـاء الطريـق، تعظيـمًا للإنسـان وتقديـرًا لـدوره في صناعتهـا، وتمجيـدًا في امـرأةٍ تسـير فوقهـا. وعـلى قارعـة الطريـق، تلتهـب دمـوع أطفـالٍ عـلى الوجـوه العفنـة الضحلـة، وحتـى الآن لم يـزل ينـزف طينًـا وأوقاتًـا أخـرى دمـاء.

تكـذبُ النظـرة وتسـتقيمُ الموضوعـاتُ الحسـية، ترقـص مـع النـور في الصبـاح، وتنفـرد داخلهـا الشـوارع المجـاورة تـزرع فيهـا أشـجار الأثـداء العطـرة، ركـز كل فكـره في تلـك البالونـات الأماميـة التـي كانـت تطـيرُ وأخـيرًا اسـتقرت.

يراهـا طبـول الحـرب في أيـام الهزيمـة مدافـع للهـدم والقتل، كـم مـن أقويـاء ماتـوا عـلى أعتابهـا، تلـك البالونـات البيضـاء

والحمراء. اتفقا على النظر معًا دون موعدٍ مسبقٍ يجمعهما، هذا الاتفاق العام المثبت المتوغل في العقول، المثبت في الأنفاس المحروقة من علب السجائر، رفضا التراجع، رفضا العودة لمبادئ الأصول، كان اللهب المفعم بالشقاوة يدعوهما للتأمل، ثم رفعا درجة التوقع إلى أقصى درجة، وانقض النسر ثاقب النظر من أعلى السماء في انتظار دخول الهدف مرحلة التنفيذ.

استقرَّ الأتوبيس في أماكن عدة، والطالبان يطلبان خروج الثعبان من الشق، وما زالت هي تعف عن خروجه من البلوزة.

تحط الأماني داخلهما إلى أبعد مدى ممكن، وتعد الأسئلة بماذا لو؟ انتظرنا وامتنع الثعبان! البلوزة المقورة ناحية الصدر تحفظ هذا البياض من الانسكاب للخارج، وكلما يوشك على الخروج تمنعه.

نزلت دون أي شق، دون أي ثعبان، دون أي سمٍّ، تَوَخَّيَا الحذر جيدًا واستعدَّا للسمِّ ولكن مرَّ كل شيء.

الفرصة كانت تتلهفُ عليهما، ولكنها خانتهما عندما رفضت العزف على أوتار الأثداء، خانتهما عند المغادرة السريعة، وكلٌّ منهما اتخذ موقفًا. الأول صدَّق الفرصة وقال: في القريب العاجل.

بينما قال الآخر على مضضٍ وتشوق:

في القريب العاجل أنا مستعد.

تفارقا عن بعضهما وما زال الهدفُ واحدًا.

وفي صباح اليوم التالي، في طريق الأول إلى عمله وفي إطار تلك الحلقة من السعي اليومي، أثناء تواجده بنفس الأتوبيس، شعر أن شيئًا ناعمًا طريًّا وضخمًا بدأ بالالتصاق به من ظهره، استبعد على الفور احتمالية أن يكون هذا الشيء رجلًا، فلو كان رجلًا لن يكون طبيعيًّا.

لكنه لم يكن من ضمن هؤلاء المستغلين للزحمة في ظل سعيه وسعيهم، أو يفعل حتى ما يقوم به الآخرون، ولكن ما العمل وهي تقتربُ أكثر.. وأكثر حتى تكادَ تلتصق.

تشاور مع نفسه، هل تقصدُ أم أن اندفاع الركاب من حولها جعلها في هذا الوضع؟ وإن كانت تقصدُ هل هي مجرد نزوةٍ وبحثٍ عن لحظةٍ لم تجدها كثيرًا؟ هل متزوجةٌ أم لا؟ في الحقيقةِ الكارثة أن تكون بالفعل متزوجةً.

أراد أن يُدير وجهه نحو هذ المصدر الطري، ثم لم يشأ أن يُحرج هذا المصدر عن الاحتكاك.

جاءته فكرةٌ عنها، يبدو أنها بائعةُ هوى، ولكن استبعد تلك الفكرة، هل تخرج بالصباح أم أنها عائدةٌ من ليلةٍ مثيرةٍ؟ وتميل من كثرة التعب.

ما زالت هناك محطتان والشيء ملتصقٌ، تسلل إحساسُ الالتصاق إليه، وهو لم يسعَ إليه بل أتى، فلمَ لا يستكمل هذا الشعور.

كثيرون في الأتوبيس يتمنون أن يكونوا بدلًا منه، المحطة القادمة محطته، طرأ على باله أن يستمر حتى تنزل هي، ويكون اليوم إجازة، تستحق إجازة، إجازة يومٍ واحدٍ ربما تكون مرةً في العمر!

فجأةً ابتعد الجسمُ عنه في فورة كل تلك الخواطر، فقرَّر هو الاقتراب منه، اصطدم بها فتوقع أن تنهره، ولكن لم يحدث شيءٌ.

فقرَّر أن يرى هذا المصدر الطري، نفض كل الاحتمالات ونظر..

كانت شنطةً مغلفةً بإيشارب حريري الملمس، شنطة ضخمة وضعتها ما بين الظهر والمؤخرة بها كل مواصفات النعومة.

نزل واستكمل حلقة السعي اليومي الشهري السنوي.

مَقَاعِدُ الزِّفَافِ

وضعوا المقاعد كما المعتاد، العريس على اليمين وعروسه على شماله.

في تجربة من واضعي المقاعد لاختبار هل وضعها بتلك الطريقة صحيح أم لا؛ وجدوها صحيحة.

جلس أحدُ العمال على مقعد العريس ذي العشرين ربيعًا للتجريب، الخيال لعب دوره في أداء التمثيلية وكأنَّ العروس إلى جواره، وكأنه يضحك وهي لا تستطيع أن تمسك نفسها من ضحكةٍ تريد أن تضحكها، بل تريد أن تصرخها بأعلى صوتٍ ممكنٍ، وهذا كله من فرط نكتةٍ عن ليلة الزفاف فقد صارا زوجين الآن، ويحق له إسماعها بعض تلك النكات فالحواجز تلاشت.

ضحك وضحكت حتى تلاشى الإيهام وعاد العامل.

جاء الدور على رئيس العمال، وهو الذي اقترح الفكرة من البداية، جلس على المقعد فتقمص دور الغضبان من عروسته، والسبب أنها تغارُ من هذه وهو يغار من هذا، ومنذ اللحظات الأولى يتبادلان الاتهامات والسؤال من هذه ومن هذا الذي اقترب منكِ بتلك الطريقة الفجة أثناء السلام؟!

أطال في التمثيلية، ولم يُرِد ختامها حزينًا، فتصالح معها وقبَّل هامتها فارتاح نفسيًّا.

هبط جميعُ العمال بعد الاستمتاع بأداء أصدقائهم العظيم.

جاء المساء ودخل البطلان الحقيقيان لتُؤدى نفس المسرحية لمدة ساعةٍ أو ساعتين أو ثلاث، ربما تطول على حسب المدة. وفي آخر المسرحية، قاما والتف حولهما المعازيم من كل جهة وتركوا المقاعد خاليةً لبطلٍ آخر وبطلةٍ ثانيةٍ.

مَوْسِمُ النَّوَافِذِ المُغْلَقَةِ

لا يجد تسليةً مناسبةً سوى انتظارِ أن تُفتح نافذةٌ ما من المُغلقة، ولكن هو الشتاء بما يحمل من معانٍ توصد النوافذ. الكل حاليًا موصودٌ بلا استثناء في نوبة الحراسة الليلة بالدشمة المجاورة لقسم الشرطة. كل تلك البيوت حركت في "سلامة" المجند حالةً من الشوق لمعرفة ما يحدث خلفها، تشاطره الليالي والقمر بعض هذا الانتظار من الوجد والوحدة.

في الصباح ينزل "سلامة" ويتجه للنوم، وقبل النوم تداول أمامه أحاديث المجندين رفقائه عن ما وراء كل شباك، وهو الوافد الجديد بينهم، تركزت الحوارات عن ميزة كل نافذةٍ أمام كل دشمةٍ؛ نافذة يتابعون من خلالها بعض المباريات العالمية والدوري المحلي، ونافذةٌ تخرج منها سيدة، تبدو

مـن ملامحهـا في أواخـر الثلاثينيـات أو أوائـل الأربعينيـات، بملابـس منزليـة شـفافةٍ كاشـفةٍ عـن بعـض أجـزاء الصـدر، تنـشر الغسـيل وأحيانًـا تقـف إلى جـوار زوجهـا؛ يـشرب هـو سـيجارته بينـما هـى تحتـسي الشـاي.

يتبادلـون الأماكـن مـن حـينٍ لآخـر، ولكـن بـين كل تلـك النوافـذ نافـذةٌ قريبـةٌ مـن الدشـمة الوسـطى التـي يـدورُ الـصراع حولهـا باسـتمرارٍ، عـن صراعـات تبديـل الخدمـة حتـى إنَّ الجاويـش لاحـظ فقـال:

إنها أوامر عسكرية نفذ يا جندي.

فيقـف المجنـد مشـدودَ القامـةِ ويـده جـوار رأسـه بتحيـةٍ عسـكريةٍ:

تمام يا فندم .

يقـف كل عسـكري منهـم واضعًـا عينيـه في المنتصـف، يضيـق الحدقـة مـن أجـل نظـرٍ أدق، ناظـرًا إليهـا وهـي تتجمـل أمـام المـرآة، وشـعرها يتطايـر عندمـا يمسـه الهـواء، تضـع الطلاء عـلى أظفارهـا ولا تخـشى الـبرد، تبـدو يدهـا لهـم عـودًا أبيـض مـن الـذرة الرفيعـة يدفـع نحـو الأكل، وعندمـا ترفـع قدميهـا عـلى حافـة السريـر لترتـدي حذاءهـا، تتهافـت الأعـين سريعًـا لمحاولـة رؤيـة أكـبر قـدرٍ ممكـن مـن قدمهـا، كل جـزءٍ مـن

كعب القدم إلى الركبة وهنا الصراع والسؤال الدائم، هل سنرى ما بعد الركبة؟

أول من بدأت تشير إليه بأصابعها كان "سيد القناوي"، وأول من استجاب لها "سعيد" من الغربية، ظلت غمزتها تدعو "سعيد" نحو مزيدٍ من اللهفة حتى تشاجر مع زميله وكاد أن يُقدم لمحاكمة عسكرية؛ عندما جاء دور "سيد" وأراد "سعيد" أن يكون مكانه.

تقف تتلوى بجسدها وتُداعب خديها، وتتموج وتتلون بالملابس، أول ما جاء "سلامة" لم يشأ أحدهم أن يخبره عنها.

وقف "سلامة" في أول أيامه، وظهرت وبدأت الإشاراتُ وهو لا يستجيب، ظنًّا أنها ليست إليه ثم تشير بإصبعها الذي يقول إليك أنت.

هو لم يُصدق وبعد انتهاء الوردية، أراد أن يُخبر أحدَ رفاقه، ولكنه قال سأحتفظ بالسرِّ لنفسي!

يضع سلاحَه على كتفه والخوذة على رأسه، والشوق بقلبه. نظر إلى أسفل وإلى يمينه ويساره، فلم يجد هناك أحدًا من رفقائه أو قادته يراه.

خرجت، فبدأ هو بالإشارة في تلك المرة، وهي تستجيب بالإشارة.

مرَّ شهرٌ كاملٌ وهو على هذا الحال، وهي تبتسم فتتبعها إشارة.

جاء موعدُ إجازته وبين أن ينفذ الإجازة أو يبقى، أشار إليها في صبيحة يوم المغادرة بالإشارات، أشار رافعًا يده علامة السفر، ثم أشار بثلاثة أي سيغيب ثلاثة أيام ويرجع.

مرَّت ثمانٍ وأربعون ساعة، بين أحاديث القرية وأصدقائه وأهله وكل أفكاره مع النافذة وصاحبتها، وقبل انتهاء الإجازة رحل، وصل للقسم؛ سأله رؤساؤه عن سبب هذا الحماس للعودة إلى الوردية فقال:

خدمة الوطن يا فندم!

أثنوا على جملته، استلم عمله وأثناء صعوده السلم للوصول لقمةِ الدشمةِ، كادت قدماه أن تطيرا بدل الصعود البطيء.

نظر إلى النافذة وجدها مغلقةً، قال ستعود وتفرح عندما ترى أني أتيت قبل ميعاد الإجازة لأجلها، انتظر.. مرَّت ساعات نوبة الحراسة ثقيلةً كئيبةً؛ أول مرةٍ يشعر بها بكل هذا السوء! انتهت النوبة ولم تخرج ولم تفتح النافذة

نفسها، قال ربما في إجازة، مرت ثلاثة أيام والنافذة على هذا الحال مغلقة.

من يسأل وكيف يعرف أين ذهبت، وفي أثناء كل الخواطر التي تجول بعقله، فتحت النافذة ولكن ظهرت يد رجل، ثم ظهر رجلٌ بشاربٍ واقفٍ، وبعد فترةٍ وجدها تقف إلى جواره تُداعب شَعره.

وقف مذهولًا بهذا المشهد حتى مرَّت ساعات نوبة الحراسة، نزل السلم وسلَّم سلاحه واتجه إلى سريره وما زال الذهول يملأه!

دخل الجاويش ينادي كل المجندين للتعرف على من أصبح مأمور القسم الجديد، وقفوا كلهم صفًّا واحدًا أمام الذي كان بدورةٍ تدريبيةٍ خارج البلاد استمرت شهرين. ظهر المأمور بملامح صارمةٍ جافةٍ، وبدأ يلقي تعليماته ويشدد على المستجدين ممن لا يعرفونه من العساكر. "سلامة" يسمع ثم يتذكر ملامح الرجل الذي كان واقفًا بالنافذة إلى جوار المرأة هو أو لا! لم يتأكد بعد.

في النوبة التالية فُتحت النافذة؛ وجده هو بعينه واقفًا بشموخه وبشاربه الذي يحط عليه النسر وجسده الذي ينتشي كل جزءٍ فيه.

رَقْصَةُ رَنِّ الْخُلْخَالِ

وضعوا زجاجات البيرة كأهدافٍ لمرمى نيشانهم، الفائز منهم الذي يُصيب أكبر عددٍ منها في أسرع وقتٍ ممكنٍ.

في المرات الماضية كان كبيرهم هو الغالب الدائم، نسر إنساني ثاقب العينين.

يزنون ذراعه المفتولة بالرطل، ضربة قبضة يده بالكيلو جرام، إذا استخدم رأسه يكون بمثابة جاكوش حديدي، يقع على رأس الآخر، فيصيبه بالارتجاج أو بعاهةٍ مستديمةٍ.

نصَّبوه على حارتهم رئيسًا..

سيد أبو زيد ليس هو اسم الوالد بل من أبو زيد الهلالي، فالوالد اسمه خليفة ويُقال إليه يا عم خليفة أو يا أبو سيد، ولكن بعد نضوج سيد وبلوغه سن الرشد،

ظهرت بركات سيد وفتوته على الحارة، فلم يعد ينده أبي سيد غير بأبي البطل.

في الليل يُعلق سيد شارات سوداء رسم عليها جمجمة بيضاء، موضوعة على باب منزله المُصفح بالحديد.

تنبح كلاب ربطها أمام الباب طوال الليل، استقرَّ نبحها في آذان أهل الحارة، فتحوَّل لنشيد ليلي يحفظه الناس فيعلن عن بداية الليل.

مرر حلوقهم زرع فيهم عبارة:

(أنا ملك الليل والنهار)

ملك يعرف كل الأشياء، ما خلف النوافذ وما يدور في غرف النوم، وعلى الأسِرة الممدودة وتحتها، ما يختفي خلف الحيطان فقد اعتبر نفسه الآذان التي يُقال عنها للحيطان.

يستخدم فرسًا يخرج به صباحًا في جولةِ تفقد أمور الرعية، بالليل تسمع سنابك الفرس وهي تسير تُجلجل في الآذان، تنفذ للقلوب.

القيمة التي تفلت من أيدينا تفلت إجبارًا أو اختيارًا، تفلت دون مراعاةٍ لشعورٍ أو حتى دون سماحٍ لحالةٍ واحدةٍ تسيطر، الكل مختلط.

طـار وارتفـع إلى مـا أبعـد مـا تطلـع هـو لنفسـه عـن نفسـه، لم يكـن يعلـم الحكمـة التـي تقـول: (مـا طـار طـير وارتفـع إلا وكـما طـار وقـع).

اجتمعـت في يـده كل سـلطات الشـارع والحـارات المجـاورة، جميـع رؤسـاء الحـارات أدوا لـه فـروض الـولاء والطاعـة، كان بمثابـة النـسر وحولـه مجموعـة نسـور آخريـن، لا يقلـون ضراوةً عنـه بـأي حـالٍ مـن الأحـوال، لكـن تبقـى الغلبـة في يـده، أصدقـاؤه أفسـدوا مثلـه.

تقـرَّر رفـعُ المعانـاة عـن أطـراف الـصراع، سـكان الشـارع والحـارات مـن ناحيـةٍ ومـن الناحيـة الأخـرى رجـال الشرطـة التـي تعـاني، لم تنفـع معـه شـدة ولا لـين، لذلـك تقـرَّر الـزَّج بـه في السـجن في إحـدى القضايـا، أو دون وجـود قضيـةٍ حاليـةٍ مثبتـةٍ ضـده، فـما قـام ومـا سـيقوم بـه في المسـتقبل يشـفع لهـم في الـزَّج بـه في السـجن لشـهور، أو ربمـا لسـنواتٍ.

كانـت ليلـة القبـض عليـه عصيبـةً جـدًّا، أطلـق نيرانـه مـن مدفعـه الرشـاش، كل وحوشـه كانـت تُقـاوم إلى انتهـاء آخـر طلقـةٍ بحوذتهـم، وعندمـا اشـتد الحصـار عليهـم، قـرَّر الاستسـلام خـرج والمنديـل الأبيـض عـلى عصـا صغـيرة، تقـدم هـو الصـف والباقـون مـن خلفـه، أيديهـم فـوق رؤوسـهم.

في قاعة المحكمة نظرت الزوجة للقضبان الحديدية، وهذا الصدأ الذي يأكلها وينزف ببعض القشور.

أما هو تلمس الحديد مخرجًا أصابعه، فتحركت الأنامل بحريةٍ باليمين واليسار.

وحديث مقتضب جدًّا وأوصى الزوجة قائلًا:

بالمرات السابقة كانت البت صغيرة ولا تُدرك معنى الحبس، لكنها الآن كبرت، أصبحت تُدرك معاني الأشياء، لا تحضريها في أي زيارةٍ معك، عليها وأن تُربى وتعرف بأن أباها رجلٌ وسيظل رجلًا إلى النهاية.

الزوجة التي كانت تشفق على الجاني قالت عبارات سمع وطاعة أخيرة: رجل طبعًا.. اتركها مع أختك بالبيت ونتبادل الزيارة مرة أنا ومرة هي تراك.

شدد على أطراف يديْها التي بالكاد يلمسها من خلف الأسلاك والقضبان وقال:

البت هتوحشني، البت في عينك لبى لها جميع ما تطلب.

- لا تقلق أبدًا.

حكمت المحكمة بالمدة التي تريح أطراف الصراع لفترةٍ معقولةٍ، لعل وعسى يتغير، لا يوجد شيء مُستبعد.

أول زيارة حضرت بسيارة أجرة بصحبة البنت، في ظل غياب الأخت لعدم رغبتها بالزيارة، خرجت منذ الصباح الباكر، ولم تعلم الزوجة أين رحلت؟ ومتى ستعود؟

حيث إن الأخت أحد أطراف الصراع الصامتة فاضطرت الأم إحضار الابنة فلمن تتركها بعد أن قاطعها الأهل والأقارب والجيران.

ظلت الزوجة ليلةً كاملةً، تتطهو أشهى المأكولات التي يحبها الزوج السجين.

تركت البنت مع السائق وأوصته أن يلبي طلباتها مهما طلبت، كان ذلك قريبًا من البوابة الأولى، حيث اصطف العساكر وبعض السيارات التي تنتظر من دخلوا للزيارة، بعض المنتظرين أشعلوا السجائر، هناك من أخرج طعامًا، هناك من تكلم مع بعض العساكر، ظلت البنت قابعةً في السيارة تنتظر.

سألها السائق:

ما اسمك لقد نسيته؟

- رن الخلخال.

- كم عمرك؟

- ثمانية.

- لماذا أبوكي أطلق هذا الاسم عليكي (رن الخلخال)؟

- اسم ستي أم أبويا كانت ترقص وجدي قتلها ودخل السجن ومات فيه.. أبويا قال إنه من كتر حبه في أمه أطلق عليّ الاسم.

- آه.. فهمت طيب أحضر شيئًا إليكي ماء أو حلاوة أو بسكوت؟

- لأ، أشكرك أنا شبعانة.

بعد فترة سكوت أدار السائق الراديو على إحدى المحطات الإذاعية الغنائية، لعل ذلك يكسر حاجز الانتظار والملل، إذ بالأغنية المشهورة تلك، يأخذ يد الفتاة ويُخرجها من السيارة بعد أن ظلت مكتوفة اليدين، واضعًا يده في يدها وقال:

هيا اخرجي قليلًا الجو جميل!

وإذ بالبنت تخرج، لتقف على جانب الطريق، تدندن بكلمات الأغنية، ليمتد الغناء إلى تحريك الوسط إلى الرقص بكامل طاقتها الإبداعية، السائق وأصحاب السيارات الأخرى والعساكر اندهشوا!

لتبدأ مرحلة التصفيق بل ويخرج أحد الضباط من سيارة شرطة قابعة أمام البوابة، ويلتفوا جميعهم حولها

مـع الأغنيـة الراقصـة المذاعـة، ضحكاتهـم تمـلأ الوجوه العابسـة، التـي قاسـت الملـل.

ومـع قـرب انتهـاء الأغنيـة بـدأت الأفـواج التـي أنهـت الزيـارة بالخـروج.

خرجـت الأم لتندهـش مـن المنظـر، تتجـه نحـو البنـت مبـاشرةً لتعنفهـا وتضربهـا ثـم تعنـف السـائق وتوجـه اللـوم لـه، تـصرخ بصوتهـا في كل مـن كان يُصفـق بمـن فيهـم الضابـط:

أيـن الرحمـة في قلوبكـم؟ إنهـا غـير موجـودة بالمـرة، طفلـة؟ تسـتغلون طفلةً؟

هـل تطنـون أنهـا وحيـدةً بالدنيـا، أبوهـا محبـوس، لكـن لهـا مـن يُدافـع عنهـا ربنـا موجـود.

حـاول السـائق الدفـاعَ عـن نفسـه لم تعـط لـه الفرصـة، لينطـق حرفًـا واحـدًا..

أعطته حسابه ورحل، راحت تبحث عن غيره..

ما زالت رن الخلخال تبكي..

تُحـاول أمهـا إسـكاتها بـكل الطـرق مـرةً بالـضرب ومـرةً بالإقنـاع:

أبـوكي محبـوس خلـف تلـك القضبـان، تشـير بيدهـا نحـو النوافـذ الحديديـة لتكمـل حديثهـا:

مـن فـين يجـي الفـرح، وهـو مـا زال خلفهـا، وعْـد سـنرقص جميعًـا عنـد خروجـه، ولكـن الآن لا.. لا يجـوز...

الشَّايُ البَارِدُ

هبط الليلُ بسوادِه، ولسانُ حالهم استر يا ساتر! عفَّر الهم وجوههم وعفَّرهم بكل الحقد والشر في السابق.

اجتمعوا في المقهى بعد سرقة الأمس، وبعد اقتسام المبالغ التي حصلوا عليها تفرَّق كل واحدٍ إلى بيته، كانوا سبعة من الرجال.

الأول والثاني والثالث أخوة، بينما الرابع والخامس هما السبب في هذا الجمع، السادس هو أكبرهم سنًّا وهو العقل المدبر وصاحب سجل إجرامي مُشرف بين أصحاب السوابق، أما السابع فهو آخر من انضم إليهم، عمله كان بالمواصلات العامة وخصوصًا تخصص أتوبيسات عامة، مرَّت سنواتٌ من عمره بالسجن على أشياء لا ترتقي لأن يقضيها مسجونًا بسببها، فقرر أن ينضم لتلك الشلة، التي عندما

تـضرب؛ تـضرب ضربـة المعلـم الـذي درس وخطـط وبحـث واسـتقصى المعلومـات؛ مـلَّ مـن العمـل الفـردي.

حـضر السـابع في الليلـة الرابعـة، وصـل إلى المقهـى قبـل الجميـع كـما ظـن، وبعـد انتظـار فـترةٍ وجيـزةٍ بـدأ يتلفـت حولـه، فلـم يجـد الوجـوه المألوفـة لأول مـرة.

طلـب واحـد شـاي، قبـل البـدء في شربـه، دخـل شـخصٌ جديـدٌ المقهـى، كان بشـاربٍ ويضـع عصـا تحـت إبطـه، جلـس عـلى أقـرب كـرسي في مقدمـة المقهـى.

سأل عنه النادل:

هل تعرفه؟

- لا لم أرَه من قبل.

انتفـض مـن مقعـده، فقـال النـادل: وحسـاب الشـاي الـذي لم تشربـه؟

- سأعود!

اتجـه نحـو سـور الأشـجار المقابـل للمقهـى، وترقـب رحيـل الرجـل، مـرَّت نصـف سـاعة ورحـل. عـاد مـن جديـدٍ، سـأل النـادل:

ماذا طلب منك؟

- طلب شايًا شربه وذهب.

- طيب! واحد شاي.

- أطلب لك شيشة حتى يحضر الأصدقاء؟

- لا، أنا منتظر التعميرة الحلوة.

ظلت المخاوف تتردد في صدره وتلكزُه حول مصير أصدقائه، فقد مرَّت ساعتان ولم يظهر أحدٌ، واليوم موعد الاتفاق على عملية جديدة. ما زاد تعجبه أكثر! أنه الوحيد في المقهى بين كل الزبائن الآخرين، لم يتحركوا من مكانهم. ذهب هو ناحية سور الأشجار مرتين بينما لم تهتز لهم شَعرة واحدةٌ، حتى عدد الحاضرين لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، مع أن هذا المقهى وفي تلك الساعة بالتحديد كان يمتلئ عن آخره!

وعلى الجانب الآخر..

قال أحدُ الموجودين لصاحبه:

لا يكفي واحد.. نحن نريد مجموعةً كاملةً.

- ألا يكفيك مجموعة الأمس؟ ستة أفراد. وإذا انتظرنا بعد ذلك ربما يرحل ولا يعود!

كانت الخواطر لا تزال تتردد في عقله، تلفت يمينًا ويسارًا ثم قرَّر أن يرحل حتى قبل أن يشرب الشاي. وعندما قام، ألقوا إشارة فيما بينهم واجتمع عليه الخمسة.

طلب النادل حساب الشاي، فرد أحدهم: حسابه عندي.

- لا تأخذ منه شيئًا فأنا لم أشربه، لقد برد.

صاح النادل:

لكنك طلبته، سواءً شربته أم لم تشربه!

"أتحاسب على الشاي البارد!" قالها وهو ينظر إلى النادل بعين المستسلم.

المَوْتُ القِرْمِزِيُّ

ليس المهم لماذا يموت؟ أو ما ذنبه؟ الأهم إذا عاش كيف يعيش؟

أنهى بتلك العبارةِ جدلًا دار مع زوجته.

هي في صمتٍ رهيبٍ، والحديثُ طال وصار الإقناع أصعب؛

ردَّت بحنقٍ:

هل ترى أن ابنتي الرضيعة تستحق الموت؟! وهي لا تملك من أمرها شيئًا؟

- مَن منا يستحق الموت؟ لولا الظروف!

- لديَّ اقتراحٌ بالانتظار ونبدأ من جديدٍ، هل تسمح لنا بالانتظار؟

- الانتظار أسوأ كلمة؛ إنها الكلمةُ الوحيدةُ التي تقتلنا دون دماء، إنها أداةُ الذبح بلا نصلٍ.. لا يسعنا الانتظار أكثر من ذلك، لا بد أن نرتب أنفسنا الآن ونهيئ ذواتنا لتقبل الحدث، وكل شيء سينتهي في غمضة عين.

- تسمح لي باقتراحٍ آخر؛ نترك الرضيعة عند أحد أقاربنا يربيها، ويكفي أنا وأنت والابن الأكبر، حتى الابن الأكبر ذو السنوات الخمس لم ترحمه!

- الجميع.... لستُ أنا هذا الأب القاسي، ولكن على العكس هذا لمصلحتهم.

- لا تنسَ أن قبولي بالفكرة كان قائمًا على الأمومة، واختياري ليس سهلاً بالمرة.

- الحساب سيكون معنا نحن، هم دون سن المحاسبة. لا تقلقي؛ جميع الغضب سينصبُّ علينا! لقد تناقشنا بما يكفي وتم حسم الأمر, أليس كذلك؟!

صمتَ وتأملَ الزوجة، وذكريات تمرُّ في المخيلة، هروب من هذا وذاك؛ شياطين في صورٍ بشريةٍ، قسوة.. ألم.. عنف، اجتمعت في ثوبٍ ألوانه داكنة.

رجع الزوج يُكرر السؤال:

أليس كذلك؟!

عادت بعد رحلةٍ من الخيالات وبعد شهقةِ موت:

وهو كذلك!

دار الـزوجُ حـول الزوجـة مـراتٍ ومـراتٍ والمقعـد في منتصف الغرفـة وكأنـه اسـتجوابٌ بوليسي رسـمي:

أيـن هـؤلاء الذيـن تأمنـين مكرهـم وشرهـم لتربيـة أطفالنـا بعدنـا؟ دعيهـم ملائكـة لا تلوثهـم الأفـكار!

- لديَّ سؤالٌ واحدٌ فقط.

- تفضلي، و لكن دون إطالةٍ فقد أزف الوقت.

- ماذا لو عُدنا نفكر بتمعنٍ ورشدٍ؟

- كيـف يكـون ذلـك في ظنـك، ألا تكفـي كل تلـك السـنوات مــن التفكير؟

- ماذا لو فكرنا بالمواجهة؟ محاولة أخيرة.

- كـم مـرةً واجهنـا، وكـم مـرةً فشـلنا، وكـم مـرةً اتخذنـا القـرار وعدنـا فيـه! الصـواب كل الصـواب؛ أن نكـون مسـتعدين للمـوت دون خـوفٍ أو قلـقٍ عـلى شيء نتركـه خلفنـا. وبضمـيرٍ مسـتريحٍ، فـلا يوجـد أبنـاء يتحـسرون. تشـجعي ولنُعـد العشـاء، ولنكـن مبتسـمين أمـام أبنائنـا، ولتتذكـري أن منظرنـا هـو آخـر

منظـر يرونـه في حياتهـم القصـيرة، التـي كمشـاعر أب كنـت أتمناهـا أطـول، ولكـن هيـا.. أحـضري العشـاء!

التفـوا حـول المائـدة، والنظـرات تُراقـب الشـوربة ومـا حولهـا، كانـت هـي فقـط مـع السـمّ، وحبـوب لسـان العصفـور الصغـيرة عـلى شـكل حـروفٍ وأرقـامٍ مُحبَّبـة!

لا تحتمـل رؤيتهـم يموتـون أمامهـا، قـررت أن تـشرب أول مِلعَقـةٍ في آنٍ واحـدٍ مـع الرضيعـة، عـلى أن يُعطـي الأب الملعقـة للابـن. تذمـر وأصرَّ أن يتناولهـا بمفـرده، أمـام الحـروف العائمـة في الطبـق والغاطسـة في القـاع بتُـؤَدَةٍ، تمهـل لينتقـي الأشـكال الصغـيرة بنفسـه، كان هنـاك الكثـير مـن حـرف "M" و"B" و"R" وكل الحـروف الأخـرى.

بينـما الأب يتجـرع آخـر ملعقـة، وبعدمـا لاحـظ وفـاة الزوجـة والابـن، لم يكمـل التأكـد مـن مـوت الرضعيـة، تجـرَّع الشـوربة وتمـدد جسـده عـلى الأرضيـة في انحنـاءةٍ مفاجئـةٍ..

وبعـد فـترةٍ صرخـت الرضيعـة بصـوتٍ عـالٍ فهـي لم تمـت؛ غافلـت الأم الأب ووضعـت لهـا محلـولًا مخـدرًا.....

دَقَائِقُ إِضَافِيَّةٌ

أشرقتْ الشمسُ وملأت السوق وبعد شروقها بقليلٍ أقبل الباعة، وكلٌّ منهم يستعد برش الماء وتلميع بضائعهم وهش الذباب عنها، الذي كلما هشوه عاد من جديدٍ.

كانت كلماتُ الدعاء الصباحية تنطلق من أفواههم تُعلن التسليم والانتظار.

أقبل طفلٌ مع أمه يتبضَّعان، وكل عينيه مع بائع البطاطا المعسّلة الواقف بأول السوق، لاحظت الأم نظرات الطفل المتعلق فقالت كلمتين:

عند العودة!

أمامها قائمةٌ طويلةٌ من المشتريات تبدأ بالخضراوات والفاكهة وتنتهي باللحم الأحمر.

عنـد كل توغـلٍ في أعـماق السـوق، لافتـة أخـرى بسـعرٍ أقـل بربـع وبنصـف جنيـه عـما قبلـه. السـعرُ يُغـري نحـو مزيـدٍ مـن التعمـق في انعطافـات جسـد السـوق المتعـرج. تُحـذِّر نفسـها مـن التـسرع بالـشراء قبـل السـؤال.

وعنـد محـل الأسـماك وقفـا، قفـزت سـمكة تطرطـش بالمـاء عـلى وجـه الطفـل الصغـير ليبـكي ولا يهـدأ إلا عندمـا اختـارت الأم نفـس السـمكة للـشراء.

لتكرر الأم الوعد:

البطاطا المعسلة حاضر.

وقفـت أمـام التفـاح الأحمـر والأخـضر، قـرأت السـعر، فحـادت عنـه تمامًـا. واختـارت فرشـة مجـاورة فاشـترت عنـب بنـاتي مسـكر. بعـد شراء الطماطـم والبطاطـس يتبقـى اللحـم، لصناعـة صينيـة البطاطـس بالفـرن.

ولم يتبـقَ مـع الأم سـوى ثمـن كيلـو اللحـم، لم يكـن الاختيـار صعبًـا بـين اللحـم والبطاطـا؛ فاختـارت اللحـم.

في طريق العودة وبعد كسر الوعد، قالت:

حبيبي الأسبوع القادم، أعدك بذلك!

سـدَّد الطفـل نظـراتٍ تحسـد الواقفـين إلى جـوار العربـة، وتلـك الرائحـة النفـاذة التـي تسـتقر في قلبـه وتذكـره بهـا،

حيث شواؤها الطيب ذو النسيم الذي يبقى بالأنف لدقائق إضافية بعد الرحيل!

شدَّت الأم الطفل من ذراعيه فتمسك بآخر أملٍ، ولكنه لم يفلح. ومضى يؤخر قدمًا ويُقدم أخرى.. قال لأمه:

وعد؟

- وعد.

قالت الأم كلمة شرف.

توقف عن الالتفات للخلف، سار معها والرائحة لا تزال تزكم أنفه.

المَرْأَةُ الَّتِي شَرِبَتْ مِنَ البَحْرِ مَرَّتَيْنِ

اشربْ من البحر!

قال لي هذا، أراد أن يغظيني..

قالها للجدة التي كانت تنظر من النافذة تتطلع إلى الشمس وبعض الغيوم التي تحجبها اليوم.

بعد جمل الحفيد صمت كل ما حولهما، سكون لم يحدث منذ فترةٍ،

ثم فجأةً تكلمت الجدة:

أريد أن أذهب للبحر، ثم أكملت: أشعرُ أن أجلي قد اقترب، تدورُ من حولي منذ الصباح بعضُ الذكريات عن موتى رحلوا، وعوالم من بشرٍ تحولت إلى ترابٍ، ترقد تحت الأشجار وتشرب من ترابها.

لم ينتبه الحفيد لكلام الجدة، إلا مع المرة الثالثة، فقد بدا له بعض الهذيان الصباحي المعتاد..

ليجدَ الشاب كميةً من الإصرار دفعه لتلبية الطلب لعلها تحتضر، رغم أنها غالبًا في كل صباح، تنبئ نفسها بالموت، تنتظر وتنتظر ثم لا يأتي، لكن ربما في تلك المرة تصدق النبوءة.

حملها من على السرير ثم وضعها على الكرسي المتحرك الذي حفظ أجزاءها منذ فترةٍ من الزمن، حتى أصبح لصيق الصلةِ بها، جلده اعتاد على حمل مؤخرتها الضعيفة.

وعند دولاب الملابس تجوَّل بصرُها الضعيف عن فساتين رقصت بها، وأخرى حملت لمساتِ بعض العشاق قبل الزواج، وفساتين احتفظت بها لأوقات القمر الحميمية، وأخرى سقتها الشمس بالعَرقِ المتساقط على الجبين، حتى وجدت مُرادها في فستانٍ تنحدر منه الورود، تكاد تصبُّ على أرضية الغرفة، استعدت بوضعِ شالٍ على كتفيها.

سار الحفيد بها من البيت للبحر، فلم تكن المسافةُ بعيدةً.

كان جسدُها الفوقي ما زال يتحرك وينتفضُ من الفرح، يهتز وتدندن ببعض أغاني البحر القديمة لم يسمع

بهـا الشـاب مـن قبـل، وصـلا البحـر وجلـس إلى جوارهـا عـلى الرمـل، بفسـتانها الكلاسـيكي الـذي أحيـا فيهـا ذكريـاتٍ سرقهـا البحـر، سـمعها الحفيـدُ تهمـسُ للهـواء وتهمـس مـرةً أخـرى في إشـارةٍ منهـا للبحـر.

أخرجـت مـن كيـسٍ بلاسـتيكي موضـوعٍ عـلى مقابـض الكـرسي المتحـرك كوبًـا

سألته أن يملأ الكوب من البحر، تعجَّب من الطلب!

لكنـه لم يمتنـع عـن تنفيـذ الطلـب فملأ الكـوب، ثـم طلبتـه وأن يشرب.

عندئـذَ انفجـر الحفيـد مراجعًـا صفًّـا مـن الطلبـات الغريبـة طـوال اليـوم:

لا يمكن يا جدة، الماء مالح ويجرح الحلق!

فقالت:

الآن فهمتُ معنى عبارة: (اشرب من البحر!).

استكملت حديثها:

أعـرف أن معـك زجاجـةً مـن الفـودكا في جيـب بنطالـك الشـمال، صـبَّ لي منهـا عـلى مـاء البحـر.

ظلت محاولاته إقناع الجدة إنه لم يعد يشرب، لكن دون جدوى حتى مدت هي يدها نحو جيب بنطاله الشمال، وعندما لم تنالها لصعوبة وصول يدها، رضخ للطلب وأخرجها.

هيا صُبَّ لي على ماء البحر.

فشربت..

هل تعلم؟ هذه أول مرةٍ أشربُ فيها الخمرَ، الخمرُ جيدٌ رغم أن الملح غلب على طعمه لكنه جيد.

ـ بالتأكيد سيغلب الملح على طعمه..

لم تسمع هي الجملة الأخيرة وأكلمت وكأنه غير موجودٍ أمامها..

مضت سنواتٌ أخشى من كأسٍ واحدٍ، أخشى على جوفي من حرارةٍ طالما سمعت عنها للخمر ودوران يُصيب الرأس، أريد كوبًا آخر بماء البحر..

نفَّذ الحفيدُ الطلبَ وهو يتساءل جدةٍ يظن أنها تحتضرُ وتشرب فودكا.

شربتْ للمرة الثانية..

ثم عاودتِ الدندنة للبحر، والغناء بصوتٍ عالٍ، وسألتْ:

متى نعرفُ نهاية البحر؟!

ـ وهل للبحر نهايةٌ؟

ـ نعم.. ينتهي مع نهاية العالم.

ـ إجابة منطقية يا جدة.

ـ صحيح منطقية يا ولدي، ولكنها اقتربت من التنفيذ.. نهاية كل شيءٍ قد اقتربت.

كل هذا الملح وكل هذا الخمر، مشيرةً للكوب.

الحياة بها شيء صالح، لا أعرف ما هو لكنها مثل هذا الكوب المخلوط بماء البحر مع الخمر.

قالتها ثم غلبها النعاسُ، سحب الحفيدُ الكرسي ثم عاود أدراجَه للمنزل

حملها ووضعها على السريرِ، مرَّ يومٌ بالكاملِ ولم تستيقظ.

اقترب منها..

وجدها ساكنةً لا تتحرك، وواضعةً إحدى الزجاجات على فمها...

وَقْتٌ جَيِّدٌ لِلتَّحْلِيقِ

في هـذا اليـوم الاسـتثنائي... جلـس أمـام البحـر ممسـكًا بالجريـدة اليوميـة. بـدأت عينـاه تتجـولان سريعًـا مقدمـة العناويـن: (حـرق الشـاب التونـسي نفسـه، هـي شرارة ثـورة الياسـمين.. الرئيـس التونـسي يقـول: (أنـا الآن فهمتكـم). وعـلى الأخبـار المحليـة مـرَّت عينـاه أسرع: (دعـوات لمظاهـرات في عيد الشرطـة احتجاجًاعـلى بعـض ممارسـات الشرطـة.. ولتحسـين الأوضـاع المعيشـية).

تـرك جريـدة الصبـاح واسـتأنف مـا جـاء إليـه بالأسـاس... الصيـد.

وضـع "نـورس" ثلاجـة الصيـد إلى جـواره ممهـدًا كل شيء لبَـدْء الصيـد، ثـم شرع فيـه. صيـادٌ ماهـرٌ تـربَّى بالقـرب مـن البحـر، حتـى إنَّ يـوم ولادتـه؛ كانـت النَـوَّة تـضرب الإسـكندرية،

وخلت الشوارع تقريبًا من المارَّة، فوجد الأب الأستاذ "عبد البر" والأم "سعيدة" أنَّ الشوارع صارت تشبه بحيرةً مائيةً طينيةً. ومع طلق الولادة والحالة تسوء، حاصرهما الماء، فلم تستطِع الأم الصعودَ للمنزل من جديدٍ أو الذهاب إلى مستشفى أو عيادة. ولم يبقَ أمامهما سوى مركبٍ صغيرٍ مُغطى بالجلد، فتم استدعاء الطبيب، وأحضر الأب الماء الساخن من زوجة الصياد صاحب المركب، متخطيًا ذاك البحر الموازي للبحر الأصلي.

تم كل شيء على ظهر المركب، وصرخات الطفل الذي اتضح أنه ولد كانت عاليةً فاحتضنته الأم سريعًا.. تلك الصرخات التي ظلَّت تشق سكون الليل.

جاء طائر نورس باحثًا عن أمانٍ أسفل الجلد، فوقع بصرُ الأب عليه قال:

الله، نورس!

- ما رأيكِ نسميه نورس؟

- نورس اسم جديد.

ثم جرَّب وقع الاسم على مسامعه "نورس عبد البر خليل" حُلْو،لنستقر عليه.

كـم مـرة سـمع "نـورس" الطفـل عندمـا كـبر قليـلاً تلـك الحكايـة، بـل كـم مـرة رواهـا "نـورس" الجـد لأحفـاده، دائمًـا مـا كان يقـول عنهـا: "حكايـة مسـلية جـدًّا".

ويجـد أن الحـظ لعـب دوره المهـم معـه منـذ بدايـة حياتـه، تخـرَّج في كليـة الآداب قسـم صحافـة جامعـة القاهـرة، عمـل بالصحافـة الصفـراء، فتعلـم صنـع الخـبر الأصفـر الباهـت وصناعـة التشـويش. انتقـل مـن جريـدة صفـراء إلى أخـرى.

رفـع عينيْـه، وجـد النـورس مُحلقًـا فوقـه يجـوب ذهابًـا وإيابًـا، واضعًـا جناحيْـه في وضعية المسـتعد، فالسـمكة الفريسـة قـد تظهـر في أي وقـتٍ.

"يـا جـمال الأبيـض، مـع منقـار أسـود بمقدمـة الفـم! "، قالهـا لنفسـه والقشـعريرة تمـلأه فخـرًا بـأنَّ اسـم "نـورس" قـد يكـون أول مـن يتـولى رئاسـة تحريـر صحيفـة قوميـة بهـذا الاسـم. تخيـل مقعـد الرئيـس وأمامـه لافتـة يُكتـب عليهـا: "رئيـس التحريـر.. نـورس عبـد الـبر خليـل".

وعـن أحقيتـه في هـذا المنصـب، تذكـر أنـه مـن الذيـن تعاونـوا مـع الأجهـزة الأمنيـة، مـن القلـة القليلـة الباقيـة عـلى عهـد الوفـاء سـواء اليومـي أو الأسـبوعي. ثـم إنَّ الرئيـس الحـالي عـلى مشـارف السـتين، والأعـين تتجـه نحـوه.. يـا سـلام! لـو

أضيف إلى منصب رئيس التحرير ورئيس مجلس الإدارة ليملك الدنيا بما فيها.

خرجت السمكة تتلوى، وهي مشبوكة في خُطَّاف الصنارة الحديدي ليضعها إلى جوار أخواتها، ممن يلفظن أنفاسهن الأخيرة في وسط البيت الثلجي الجديد.

مرت ساعتان وهمَّ بالرحيل مجمعًا كل أشيائه، الراديو والصحف والمجلات، يتبقى على غروب يوم ٢٥ يناير ساعاتٌ قليلةٌ.

عاد نورس لشقته بالإسكندرية، وضع الأسماك بالثلاجة. كان أهل المنزل؛ زوجته وبعض أولاده يشاهدون التلفاز، وعيونهم مسلطة على المظاهرات والاضطرابات التي تضرب القاهرة اليوم، واللافتات مرفوعة: "عيش- حرية – عدالة اجتماعية".

تغدَّى ثم ذهب لسريره، لقد كان اليوم شاقًّا للغاية، وقبل أن يغفو ويستغرق في النوم، تذكَّر.. ولمعت عيناه ببهجةٍ:

يا سلام! "نورس عبد البر"، رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير!

وَدَاعًا أَيُّهَا الزَّعِيمُ

استيقظ رجلُ الدولة في ليلةٍ بلا قمرٍ على صوت رنين الهاتف:

ألو جناب القائد تعيش أنت؛ لقد توفي الزعيم منذ دقائق قليلة!

- إنها مصيبةٌ! هل عرف ابنه الكبير الخبر؟

- نحاولُ الاتصال به ولا من مُجيب.

- تمام.. سآتي على الفور.

وصل القائد، وجد جسدَ الزعيم مسجًّى على السرير، ساكنًا. لأول مرةٍ يراه ساكنًا! تأمل فمه الذي طالما قال وأصدر الأوامر والنواهي.

تيبَّس الدمُ واحتبس في العروق، لأنه لم يجد مفرًّا من الهرب إلا الآن، دمٌ كان يلف في دوراتٍ داخل جسده دومًا، تغير لونه بفعل الغضب، وأخيرًا استراح من عناءِ اللف.

سأل القائد ورجل الدولة:

هل عرف ابنُه الأكبر خبر الوفاة؟

قالوا: نعم لقد عرفَ وهو في طريقه إلينا الآن.

- لن نفعل أي شيءٍ قبل وصوله، فهو الذي سيقترح علينا ما سنفعل. دعونا الآن نتلو بعض الأدعية على روحه.

وقف الحرسُ متململين إلى جوار رجل الدولة يتلو بعض الأدعية.

حضر ابنُه متخذًا صفات والده، الذي طالما نهر وغضب وانفعل، وقال بعض الكلمات المقتضبة.

زعماء العالم كله لا بد أن يحضروا.. وجميع الشعب يكون في وداعِ الزعيم الأكبر.

(٢)

ببعـضِ الدمـوع الصناعيـة قالـت مذيعـةُ القنـاة الأولى بتلفـاز الدولـة السـعيدة، البيـان الـذي تعلـن فيـه وفـاة الزعيـم والأب الروحـي للشـعب، حاولـت كثـيرًا اسـتجماع كل دمعـةٍ مـن أعـماق أعماقهـا، إلا أنهـا فشـلت في جلـب دمعـةٍ واحـدةٍ حقيقيـةٍ.

جـاءت توصيـاتُ إلقـاء خـبر الوفـاة شـديدة الصرامـة والحـزم، في التأكـد مـن حـزن نـبرة الصـوت، مسـح أي نـوعٍ مـن أنـواع المكيـاج، بـل ومـن الأفضـل وضـع هـالات سـوداء أسـفل العـين. كل شيء في مبنـى التلفـاز اكتـسى باللـون الأسـود، لمـدة يعلمهـا ابـن الزعيـم.

جميـعُ الترتيبـاتِ أصبحـت قيـد التنفيـذ، سـيُقام حفـلٌ شـعبي مهيـبٌ يضـم جميـع أطيـاف الشـعب، وضـع ابنـه اللمسـات الأخـيرة للخطـاب، الـذي يعلـن فيـه بمزيـدٍ مـن الأسى والجـزع توديـع الأب، والوفـاء لـكل المبـادئ التـي تـربَّى عليهـا هـو شـخصيًّا والشـعب كلـه.

في ظـل تلـك الظـروف العصيبـة، عجـز البعـض عـن الوفـاء بالحضـور وكان منهـم "فرحـان بالأمـر" وأسرتـه. بـدأت التحقيقـات معـه، فظلـت الأسـئلة تتدفـق عليـه وهـو يُجيـب بكلـماتٍ قليلـةٍ مثـل:

لا.. أقسم لكم.. أنا مواطن صالح.. اتركوا أسرتي ترحل!

بعد صراعٍ، انتهت التحقيقات ولم يصلوا إلى نتيجةٍ معينةٍ، من أجل ذلك استمر حبسُ المتهم وأسرته على ذمة التحقيق.

الوقت لم يُسعف رجال التحقيق بأداء الواجب الوطني على أكمل وجه وحضور الجنازة.

كل إجراءات الدفن الشعبية أصبحت جاهزةً، ولم يعد شيءٌ باقيًا، سوى أن يُوارَى الزعيم الثرَى.

استعد الجميعُ هنا لتوديع فخامته المبجلة.

اصطفَّ الشعبُ رجالًا ونساءً وأطفالاً، لتودعه الجموعُ بأكاليلِ الورود والزهور. تم تلقين الأطفال درسَ كيف تودع الزعيم، كما اندسَّ جنودُ الدولة بين الحاضرين للتأكد من دموعهم وأنها حقيقية جدًّا.

خلت منازلُ العاصمةِ تقريبًا من كلِّ سكانها، ما عدا بعض العجائز والمرضى الذين اكتفوا بمتابعة الجنازة عبر التلفاز.

اجتمع الوزراء ورئيسهم، وإلى جوار ابن الزعيم الراحل، وقفوا مخفضين الرؤوس، وشعاع الحسرة اللائقة يلمع في عيونهم.

جاءت الشمسُ مشرقةً وعلى غير العادة، في أيام شتاء دولتهم القارس، الجو صافٍ وكأنه يومٌ ربيعي من أيام السنة، لم تشاركهم الطبيعة هذا الحداد بل على العكس بدت وكأنها مستريحةٌ.

أسرة "فرحان بالأمر" التي تأخرت عن الحضور تكونت من أب وأم وأبناء، حملت الزوجة اسم "سعيدة مشكور"، كالمعتاد أن تكون أسماء أبناء الدولة، تحمل شيئًا من السعادة أو فعلًا من أفعال الشكر.

تم إلقاءُ القبض عليهم في طريقهم للحضور مع بعضٍ من المتقاعسين الذين بحثوا عن مكانٍ للاختباء وفشلوا، وبعض المتأخرين أمثالهم، الذين حاولوا الوصول عبر الطرقات الجانبية أو الأزقة الصغيرة، ولكن هيهات أن تفلح المحاولات! تم إجهاضها ولم تُجدِ نفعًا، وتم ترحيلهم جميعًا.

في طريقهم إلى السجن ملأت مكبراتُ الصوتِ الساحة القريبة والمؤدية إلى السجن، وكلمة ابن الزعيم تزلزل أركان الشوارع والأزقة:

وداعًا أيها الزعيم فنحن لك أوفياء.. الكل هنا واحد.

زَوْجَةُ القِطِّ الرَّمَادِي

ذكرت جريدةُ التحرر في مطلع أخبارها الأسبوعية..

أن قطةً من قطط الميدان تركت قطها الرمادي وانطلقت بين السيارات والباصات المكدسة بالبشر المتلاحمين ثم وصلت كوبري قصر النيل.. يذكر الخبر انزعاج القطة من أسديْ قصر النيل حتى وجدت في اَخر الكوبري أسديْن اَخرين شامخين.

ركضت بكل قوتها وفي ركضها هذا لمحت فأرًا، يُحاول الاختباء داخل إحدى فتحات الكوبري.

ركضت خلفه لعل وعسى، ولكن دون جدوى..

دخل في أضيق فتحةٍ، حاولت مدَّ البوز لم تصل حتى لأول مدخل الفتحة..

عـادت القطـة في محاولـةٍ منهـا للوصـول لقطهـا الرمـادي القابـع عـلى حشـائش ميـدان التحريـر..

لمحهـا كلـبٌ ضـال يجـوب الشـوارع المحيطـة بالميـدان، عندئـذ بـدأ الكلـبُ ينبـح ثـم وضـع في قلبـه رأس تلـك القطـة البيضـاء.

كشَّر عن أنيابه وثغره المتلون بالبمبي.

بـدأت المطـادرة ظلـت تبحـث كسـمكةٍ خرجـت لتوهـا مـن المـاء، تبحـث عـن ميـاه تـردُّ إليهـا نفسَـها.

المحـلاتُ مغلقـةٌ، الفتحـاتُ تـكاد تكـون منعدمـةً، كل الأشـياء مغلقـةٌ بإحـكامٍ،

تلامست أقدام الكلب مع أطرافها الصغيرة.

جـرت بعـضُ الصـور في مخيلتهـا عـن أحداثهـا مـع القـط الرمـادي، وضياعهـما مـن بعضهـما فـترةً مـن الفـترات، ثـم التقيا مـن جديـدٍ، وأنجبـا قططًـا، تفـرق معظمهـا عنهـما ورجعـا معًـا بمفرديهـما.

اصطدمت بقاعدة تمثال طلعت حرب..

المـواء القطـي يـزداد مـواءَ، يتسرسـبُ إلى مسـامع سـاكني الميـدان، مـواء لم يكـن عاديـا، مـواء مَـن تسـتغيث.

مـرَّت القطـةُ بـين صفـين مـن البـشر، صـفٌّ مرتـدٍ خـوذاتٍ ممسـكٍ بعـصيٍّ مرتـدٍ اللـون الأسـود، وصـفٍ آخـر مـن البـشر مـن رجـال ونسـاء وبعـض الصبيـة.

مرقـت القطـة بينهـما، لكـن الكلـبَ عـاد عندمـا استشـعر التهـاب الأوضـاع وتأهـب الطرفـين للاشـتباك.

ركضـت القطـة وقبـل آخـر قـدمٍ لهـا عبـورًا بينهـما وقـع الاشـتباك، وانهالـت العـصي عـلى الصـف المتنـوع.

القطـةُ مـا زالـت تهـربُ مـن دهـس الأقـدام، حتـى نجـت مـن الدهـس بأعجوبـةٍ.

خـسرت بعضًـا مـن طـرف ذيلهـا، بينـما لوَّنـت القنابـل المسـيلة للدمـوع لونهـا الأبيـض بلـون رمـادي يقـترب مـن السـواد.

القـط الرمـادي لم يكتـف بالنـدب أو المـواء المتقطـع، أخـذ عـلى عاتقـه البحـث، ومـا زال البحـث جاريًـا عنهـا حتـى الآن.

انتهى الخبر، وطويتُ الجريدةَ وأكملت السير.....

*تِلْكَ الشَّمْسُ

أَلْعَابُ الشَّمْسِ

وقـفَ البعـضُ منهـم كأعـوادِ حطـبٍ والبعـضُ الآخـر كسـنابل قمـحٍ ذهبيـةٍ.

احترقـوا في الشـمس مـراتٍ عديـدةً وقبـل الانصهـار بقليـلٍ سـبحوا، وقبـل أن يلونهـم القمـر باللـون الفـضي رجعـوا إلى منازلهـم، اختـاروا الشـمس كأسـهل وأرخـض حـل ممكـنٍ للعـب، وهـي بـكل بسـاطةٍ لم تدعهـم ينتحبـون؛ بـل كانـت تشـاطرهم بالضـوء وتطـوق أعناقهـم بـه، حتـى العُشـب النامـي حـول الترعـة عندمـا يجلسـون عليـه يجففهـم كمنشـفةٍ قطنيـةٍ كثيفـة الوبـر.

سـبحوا بأجسـادهم النحيلـة في الترعـة في أيـامٍ حـارةٍ عـلى أنهـا بحـرُ القريـة، تشـابهت ظروفهـم مـع القطـن الصيفـي وقـت الجنْـي، ارتفعـوا وقـت الـشروق وأصابتهـم لوثـةُ عبـاد

الشمس نحو الضوء الصباحي، حيث وجبت عليهم المتعة واللهو بل والفرح.

في الصباح يجدون الشمس، فتجدهم هي بابتساماتها البيضاء المعشّقة باللون الأصفر، يمدون أيديهم ويمسكون الشعاع ويلتفون به، فيسبحون في الشمس وفي الترعة معًا.

جال الشعاعُ على وجوههِم قبل قليلٍ حتى وضع فيهم شيئًا منه.

اليوم يومُ الاختبار والجميعُ في الصف له متعته الخاصة منها، الحطب وكعادة الحطب ضعيف احترق منها وبقيت السنابل.

جاء المشرف لينادي الأسماء، كان اليوم بلا شك يوم تحليل البلهاريسيا..

لينضم إلى مُشرف الصحة ناظر المدرسة كرجالٍ للفرز.

جاءوا كرجالٍ يجمعون الحشائش الضارّة من قلب المجتمع الأبيض، رجال تستخرج اللؤلؤ من قلوب المحار.

جاء وقتُ تحليل البول، ولكل طالبٍ كوبٌ، تكفي قطراتٌ بسيطةٌ تُوضع تحت المجهر، فتشير إليه بالبراءة أو الجرم.

العيّنات حاليًا تحت المجهر.

ما بين شكٍّ ورجاء وقف الحطب؛ ربما أخطأت الدودة السكن في تلك المرة، وعلى رجاء الخطأ والانتقال من خانة الحطب ولو مؤقتًا إلى خانة السنابل انتظروا .

لكن جاءت الأسماء كما المتوقع، وصارت السنابل في صفٍّ والحطب في صفٍّ، في ملفاتٍ رسميةٍ حكوميةٍ تم تدوين أسماء الطرفين.

بدأ استهزاءُ السنابل بالحطب في ظل خجلِ وكسوف الأخير.

تمنوا أمنيةً.. أن تنشق الأرض وتبتلعهم..

توزع أقراص العلاج مع دعواتٍ بالشفاء.

فتساءل الأطفالُ: متى تموت في الحقيقة؟

بالأقراص أم بموت الحطب نفسه؟!

لتعاودَ الشمسُ ألعابها مع مجموعةٍ أخرى من الحطب، يلعب الصغار ألعاب الشمس من البداية، تصدر إليهم البهجة، حتى كبار الحطب يرفعون وجوههم إليها عند الشروق ويتعجبون من الغروب وقت الحاجة والمتعة!

دُمُوعُ زَهْرَةِ الشَّمْسِ

- العـلاجُ لا يُناسـبُ حالتـك؛ لقـد صـارت الحالـةُ ميئوسًـا منهـا!

بعبـوسِ الوجـه الصامـت الـذي لا تتحـرك فيـه أي عضلـةٍ مـن العضـلات، أبلـغ دكتـور "فخـري" "زهـرة" أنَّ محاولتـه لعمـل ترقيـع لغشـاء البـكارة فشـلت.

دمـاءُ الحـمام، دمـاءُ الأرانـب، هنـاك شيء مـا يفشـل! "زهـرة"، أي طبيـب سـيقول نفـس الـكلام، لا تضعـي أموالـك في شيء لا طائـلَ منـه.

السـؤال تحـرَّك في عينيهـا بخطـواتٍ سريعـةٍ حتـى وصـل إلى مقدمـة اللسـان:

لماذا نجح مع أخريات؟!

- هذا هو حظك.

تشققت خدودُها بعد الخروج من عند الطبيب، حتى إنَّ معنى كلمة طبيب فقدت معناها لديها.

انصرفت "زهرة" للتواري متخذةً من اسمها بعض صفات الزهرة، لتستعدَّ للذبولِ وتفقد تلك التلقائية التي طالما أحاطت بها عند شعورها بالماء الجاري، وخضعت لانحناء الطبيعة عليها المثقل بالندى الصباحي.

تساءلت: هل تنفع الصلصة في حالتي أو صبغة حمراء أضعها بين فخذي.

قالت إحدى الصديقات إنَّ هناك أنواعًا جديدةً من الأغشية مستحدثة تملأ الأسواق حاليًا، أغشية ممنوع تداولها بمصر مهربة توضع على مقدمة العضو وتؤدي نفس المهمة تقريبًا.

هتفت زهرة:

العين أهم شيء، وأن تُصدق تلك الأغشية الجديدة!

- أغشية تقبلها العين وتقتنع، لا تنزعجي!

(٢)

انهالت القُبل على الشفاه حتى جعلت رسم الشفاه الأحمر ملطخًا حتى تلاشى، وانطبع على خد وفم "سيد الوسلتي"؛ سُمي بالوسلتي لأنه يعرف الوسيلة المناسبة لكل حدثٍ ويعرف أن يستغله، واتبع مع "زهرة" دستورًا ذاتيًّا نفذه باحترافٍ.

- أحبك يا زهرة، أحبك يا زهرة!

- أحبك يا سيد.

ياء المُنادى كانت ياء للبعيد وكأن شيئًا ما يبتعد ولا فائدة من المناداة، غاصوا في أجساد بعضهما البعض في مراتٍ شديدةِ الوحدة للطرفين، حيث قاد "سيد" الموقف من فوق وقادت "زهرة" الموقف من الأسفل فضاع كل الغشاء....

صَاحِبُ الشَّمْسِ

استيقظ "جلال" فوجد من يتلحف الغطاء إلى جواره، فسأل نفسَه يا تُرى مَن هذا؟ فهو متأكدٌ تمام التأكد أنه نام بالأمس بمفرده، فردَّد بحذرٍ:

يا أستاذ!

لم يُجِبْ أحدٌ. كرر العبارة: يا أستاذ! فلم يُجبْ أيضًا، وهنا أخذ قرارًا بكشف الغطاء، فأسفرَ عن ضوءٍ ساطعٍ خارجٍ من شكلٍ كروي يُشبه الشمس.. مفاجاة أذهلته! أرجع الغطاء كما كان حتى يستوعب تلك الصدمة.

يا ترى ما هذا؟

نظـر مـن النافـذة التـي تركهـا مفتوحـةً بالأمـس؛ لم يجـد الشـمس ومـا زال الليـل يُخيـم مـع أن السـاعة الآن تُشـير للسـابعة صباحًـا.

تأكـد أن الشـكل الكـروي المشـع هـي الشـمس، قـرَّر أن يزيـح الغطـاء عنهـا ويلمسـها، لمسـها فوجدهـا دون حـرارةٍ، حملهـا بـين يديـه فوجدهـا يمكـن تصغيرُهـا إذا ضغـط عليهـا حتـى يسـتطيع حملهـا في جيـب قميصـه!

وضعهـا بـه، أراد أن يُخفـي ذلـك عـن الآخريـن، فلـم يشـأ تركهـا وحيـدةً بالغرفـة. كل قبـسٍ مـن شـعاعٍ يفـرُّ مـن قميصـهِ بـين حـينٍ وآخـر، وكل قبـس نـور يفـج مـن بـين أليـافِ القميـص القطنيـة.

ضغـط بكلتـا يديْـه عـلى رأسِـها لتنفـذ في أعمـق نقطـة مـن الجيب.

كل المحـاولات بـاءت بالفشـل، وعـرف الجميـعُ بالخـبر، تأملـه جميـع النـاس في الشـوارع التـي مـرَّ بهـا، لم يشـأ ركـوب مواصلـةٍ عامـةٍ بـل سـار عـلى قدميْـه.

ذهـب لـشراء علبـة سـجائر، البائـع لم يسـأله الحسـاب بـل سـأله أن يـرى كيـف تبـدو الشـمس عـن قـربٍ، فرفـض بشـدةٍ.

سـار في طريقـه حتـى وصـل عملـه، ترحـابٌ حـار بـه مـن أصدقائـه بالعمـل، وقفـت أمامـه زميلتـه الهدبـاء تُحـاول إقناعه بوضـع الشـمس عـلى المكتـب ربمـا تحـرق حرارتهـا قلبـه.

دخل إليه الساعي يُخبره أن المديرَ يستدعيه.

عقد المدير حاجبيْه، وقال:

أسـتحلفك بالشـتاء! ألم ترتعـش أطـرافُ قدميْـك أو أنامـل أصابعـك مـن قبـل؟! اتركهـا لأن أطرافنـا تشـتاقها. قـال المديـر، وكاد يجثـو! لكنـه تراجـع.

لم يُجِبْه وخرج دون استئذانٍ.

في نشرة المساء:

"اختفاء الشمس تاركة خلفها مكانها خاليًا!"

بينـما هـو وضعهـا إلى جـواره، عـلى سريـره اسـتلقى، وتمتـم ببعـضِ عبـارات الغـزل العفيـف، لم ينَـم ولم تنَـم؛ ظـلا طـوال الليـل يحكيـان.

قبـل الفجـر بقليـلٍ ودَّعتـه وألقـت تحيـة سـلام، وشـاءت ألا تخـذل منتظريهـا ليـومٍ آخـر.

اسـتوعب النـاسُ هـذا الـدرس فبنـوا مخـازن ضخمـةً بدافـع ادِّخـار الشـمس، عملـوا حسـابًا ليـومٍ مثـل هـذا الـذي مـضى..